الفصل الرابع:

سنن العمران البشري في الفعل، والمنهج النبوي بين البدايات والنهايات

تمهيد:

لا شك أن للعمران البشري بدايات يؤسس عليها بنيانه، ونهايات يعدّها هي المقاصد العليا لهذا العمران. وبين البدايات والنهايات مسارات زمانية ومكانية، ومسافات تاريخية وحضارية تعرف أشكالاً من التدافع والابتلاء والتداول والتجديد وفق سنن الله تعالىٰ في الاجتماع والعمران: تسخيراً واستخلافاً وتمكيناً. ونقصد هنا بالبدايات، في سياق حديثنا، تلك الخطوات والقواعد السننية التي اعتمدها رسول الله ﷺ في مرحلة التأسيس والبناء للعمران الإسلامي، أما النهايات فهي تلك الخطوات والإجراءات والقواعد السننية التي مكنت رسول الله ﷺ من تحقيق النصر والتمكين وتثبيت قواعد العمران الإسلامي العالمي. ولا يخفىٰ أن بين تلك البدايات والنهايات ما يفيد استنباط القواعد والإجراءات التي تعمل علىٰ حماية هذا العمران الإسلامي من التراجع والسقوط، ووقايته من تلك المهددات التي تعرقل عملية تنمية مكتسبات هذا العمران أو تعوق بقاءه واستمراريته. ولذلك كان الحديث في هذا الفصل عن مراحل البناء السنني للعمران البشري في السيرة النبوية؛ سواء ما تعلق منها بمرحلة التأسيس والبناء، أم بمرحلة النصر والتمكين، أم بإجراءات وعمليات حماية العمران من التراجع والسقوط. ونظراً لأهمية هذه الإجراءات والعمليات الحمائية والوقائية تم التطرق إلىٰ منظومة القيم المضادة لسنن العمران البشري، وذلك لأن أول ما يؤتىٰ منه العمران هو فساد القيم الحاكمة وانحرافها عن خط العبودية والاستخلاف والشهادة والعالمية. ونظراً لما تكتسيه المرحلتان الأولىٰ والثانية من أولوية في بناء العمران كان لزاماً علينا تحديد شروط إحكام سنن العمران البشري في ضوء الهدي النبوي وذلك من خلال ما سنبسطه من حديث عن دعائم التغير الاجتماعي وقواعد الفقه المستقبلي

في توقع الأزمات في ضوء السيرة النبوية.

أولاً: مراحل البناء السنني للعمران البشري في السيرة النبوية ومنظومة القيم المضادة له

نميز في تاريخ الرسالة النبوية في سعيها لإقامة العمران البشري، وفق سنن الله النافذة والمطردة بين مرحلة التأسيس والبناء ومرحلة النصر والتمكين. فالنبي ﷺ اتجه في بداية دعوته إلى تأسيس وبناء الدعائم والقواعد التي يقوم عليها العمران البشري، وكان لهذه المرحلة التأسيسية من عمر الرسالة الخاتمة سنناً لم تكن لتحيد عنها، وهي التي أفضت بها إلى الدخول في مرحلة النصر والتمكين. ولا غرو أن نؤكد مرة أخرى على أن من أبرز الخصائص التي تجعل المنهج النبوي في إقامة العمران البشري -من خلال تتبع مراحله وخطواته، والسنن التي استثمرها فيه- "محلاً للاقتداء والتأسي، وتجعله أنموذجاً يحتذى، إنما هي في واقعيته وتوافقه مع فطرة الإنسان، وإنه تحقق من خلال تعامله مع السنن الجارية في الكون، ومن خلال عزمات الإنسان، بضعفه وقوته، وتذكره ونسيانه، وفطرته وغريزته، ونزوعه إلى الخير، وانحداره في الشر، واستيعاب جميع ما يتعرض له من الظروف، والأحوال، والقابليات، من الشدة والرخاء، والسقوط والنهوض، والهزيمة والنصر، ليكون المنهج من ثم دليلاً ومرشداً، في كيفية التعامل مع الأحوال كلها، من خلال الاستطاعات المتوفرة، والظروف المحيطة، ولم يتحقق من خلال تعامله مع السنن الخارقة، الخارجة عن طاقة البشر، التي قد تسهم بالتواكل، والإلغاء، وانطفاء الفاعلية، وتؤدي إلى السلبية، والإرجاء. واعتمد الزمن، وسنة الأجل، بوصفهما عنصراً لازماً، لإنضاج الفعل الحضاري، وتحكم بالزمن تسخيراً وإنتاجاً، بعيداً عن النظرة الدهرية والجبرية الزمانية، التي كانت من مثالب الكفر، وليس من خصائص الإيمان."[1]

(١) ابن مبارك، **المنهج النبوي والتغيير الحضاري**، مرجع سابق، ص٣١، من مقدمة عمر عبيد حسنة.

١ - مراحل البناء السنني للعمران البشري في السيرة النبوية:

نرى من خلال تأملنا في السيرة النبوية من منظور سنني أن مرحلة التأسيس والبناء امتدت من بداية الدعوة ونزول الوحي على رسول الله ﷺ إلى صلح الحديبية، أما مرحلة النصر والتمكين، فهي التي تلت صلح الحديبية. واخترنا أن نجعل صلح الحديبية لحظة تاريخية فارقة في تاريخ إقامة العمران البشري وفق الهدي السنني النبوي، لما مثلته من رمزية كبرى ضمن حلقات التدافع بين الحق والباطل، وما أفرزته من معطيات جديدة أسهمت في إحداث تغييرات جوهرية في منطقة شبه الجزيرة العربية واختلالات في موازين القوى، وفتح آفاق جديدة أمام المشروع العمراني الإسلامي وتدويله والدعوة إليه بإرسال الرسل إلى الملوك والأمراء، وما ترتب عنها أيضاً من النتائج العظيمة حتى سماها القرآن الكريم فتحاً؛ فتحاً لقلوب العرب، فأسلم الآلاف منهم كما دل على ذلك عدد أفراد الجيش الإسلامي المشارك في فتح مكة، وفتحاً سياسياً حيث عد عقد الصلح بين معسكر الشرك الذي مثله المفاوض سهيل بن عمرو ومعسكر الإيمان الذي كان يقوده النبي ﷺ اعترافاً من قبل قريش بالكيان السياسي للدولة الإسلامية، وفتحاً اجتماعياً واقتصادياً[1] تجلى في فتح

(١) يستفاد ذلك من الحديث الذي رواه البخاري في صحيحه عن عائشة رضي الله عنها قالت: "لما فتحت خيبر قلنا الآن نشبع من التمر". وقول ابن عمر رضي الله عنهما: "ما شبعنا حتى فتحنا خيبر." قال ابن حجر: "وفيه إشارة إلى أنهم كانوا قبل فتحها في قلة من العيش." وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: "لما قدم المهاجرون المدينة من مكة وليس بأيديهم: يعني شيئاً، وكانت الأنصار أهل الأرض والعقار، فقاسمهم الأنصار على أن يعطوهم ثمار أموالهم كل عام، ويكفوهم العمل والمئونة. وكانت أمه أم أنس؛ أم سليم كانت أم عبد الله بن أبي طلحة، فكانت أعطت أم أنس رسول الله ﷺ عذاقاً فأعطاهن النبي ﷺ أم أيمن مولاته أم أسامة بن زيد. قال ابن شهاب: فأخبرني أنس بن مالك أن النبي ﷺ لما فرغ من قتل أهل خيبر، فانصرف إلى المدينة رد المهاجرون إلى الأنصار منائحهم التي كانوا منحوهم من ثمارهم، فرد النبي ﷺ إلى أمه عذاقها، وأعطى رسول الله ﷺ أم أيمن مكانهن من حائطه. وقال أحمد بن شبيب أخبرنا أبي عن يونس بهذا وقال مكانهن من خالصه." قال ابن حجر: "قوله: "فقاسمهم الأنصار" إلخ، ظاهره مغاير لقوله في حديث أبي هريرة الماضي في المزارعة: "قالت الأنصار للنبي ﷺ: "اقسم بيننا وبين إخواننا النخيل"، قال: "لا". والجمع بينهما أن المراد بالمقاسمة هنا القسمة المعنوية، وهي التي أجابهم إليها في حديث أبي هريرة حيث قال: "قالوا فيكفوننا المؤونة ونشركهم في الثمر" فكان المراد هنا مقاسمة الثمار، والمنفي هناك مقاسمة =

خيبر[1] حيث تم إنهاء آخر ممثل للوجود اليهودي داخل المدينة الذي كان يمثل تهديداً حقيقياً للاجتماع الإسلامي. وفتحاً نفسياً حيث صار كثير من زعماء قريش وقادتهم يؤمنون بأن أمر محمد ﷺ في علو وتقدم وتمكين؛ من ذلك ما قاله أبو سفيان بعد حواره الشهير مع هرقل عظيم الروم معلقاً على اعتراف هرقل بنبوة محمد ﷺ، راجياً بشوق ومحبة لقاءه معبراً عن ذلك لوكان معه لغسل قدميه، مبشراً بما ستؤول إليه دعوة رسول الله ﷺ قال أبو سفيان "فلما قال ما قال، وفرغ من قراءة الكتاب، كثر عنده الصخب، وارتفعت الأصوات وأخرجنا، فقلت لأصحابي حين أخرجنا: لقد أمر[2] أمر ابن أبي كبشة،[3] إنه يخافه ملك بني الأصفر. فما زلت موقناً أنه سيظهر حتى أدخل

= الأصول. وزعم الداودي وأقره ابن التين أن المراد بقوله هنا: "قاسمهم الأنصار؛" أي حالفوهم، جعله من القسم بفتح القاف والمهملة لا من القسم بسكون المهملة، وقد تقدم تعقب ما زعمه في كتاب المزارعة... قوله: "فكانت أعطت أم أنس؛" أي كانت أم أنس أعطت. قوله: "عذاقاً" بكسر المهملة وبذال معجمة خفيفة جمع عذق بفتح ثم سكون كحبل وحبال والعذق النخلة، وقيل إنما يقال لها ذلك إذا كان حملها موجوداً، والمراد أنها وهبت له ثمرها." انظر:

- البخاري، **الجامع الصحيح**، مرجع سابق، كتاب: المغازي، باب: غزوة خيبر، ج٤، ص١٥٥٠، حديث رقم: (٣٩٩٩ و٤٠٠٠). وكتاب: الهبة، باب: فضل المنيحة، ج٢، ص٩٢٦، حديث رقم: (٢٤٨٧).
- والقشيري، **صحيح مسلم**، مرجع سابق، كتاب: الجهاد والسير، باب: رد المهاجرين إلى الأنصار منائحهم من الشجر والثمر حين استغنوا عنها بالفتوح، ج٣، ص١٣٩٣، حديث رقم: (١٧٧١).
- ابن حجر العسقلاني، **فتح الباري بشرح صحيح البخاري**، مرجع سابق، ج٧، ص٤٩٥، وج٥، ص٢٤٤.

(١) كان فتح خيبر بعد صلح الحديبية، وذكر ابن إسحاق وغيره أنها كانت في السابعة؛ أي بعد الحديبية وبذلك قال الجمهور، ورجح ابن حجر ما ذكره ابن إسحاق وغيره. انظر:

- ابن هشام، **السيرة النبوية**، مرجع سابق، ج٢، ص٣٢٨.
- ابن حجر العسقلاني، **فتح الباري بشرح صحيح البخاري**، مرجع سابق، ج٧، ص٤٦٤.

(٢) أَمِرَ بفتح الهمزة وكسر الميم أي:كثر، وعظم. انظر:

- الرازي، **مختار الصحاح**، مرجع سابق، مادة (أمر)، ص٣٢.
- ابن حجر العسقلاني، **فتح الباري بشرح صحيح البخاري**، مرجع سابق، ج١، ص٨١.

(٣) يقصد أبو سفيان بابن أبي كبشة النبي ﷺ "لأن أبا كبشة أحد أجداده، وعادة العرب إذا انتقصت نسبت إلى جد غامض." وقال السهيلي: "قيل إنها كنية أبيه لأمه وهب بن عبد مناف، وقيل كنية أبيه من الرضاعة الحارث بن عبد العزى، وقيل إن سلمى أخت عبد المطلب كان يكنى أبوها أبا كبشة، وهو =

الله علي الإسلام."[1] ودليل وقوع هذا بعد صلح الحديبية قول أبي سفيان من حديث ابن عباس الذي تقدم: "انطلقت في المدة التي كانت بيني وبين رسول الله ﷺ. قال: فبينما أنا بالشام؛ إذ جيء بكتاب[2] رسول الله ﷺ إلى هرقل... "[3] الحديث. ومن ذلك أيضاً قول عمرو بن العاص: "لما انصرفنا مع الأحزاب عن الخندق جمعت رجالاً من قريش، كانوا يرون رأيي ويسمعون مني، فقلت لهم: تعلمون والله أني أرى أمر محمد يعلو الأمور علواً منكراً، وإني رأيت أمراً، فما ترون فيه؟ قالوا: وماذا رأيت؟ قال: رأيت أن نلحق بالنجاشي، فنكون عنده،..."[4] وقد تجهز عمرو بن العاص وأصحابه، ورحلوا إلى النجاشي، ووافوه بعد صلح الحديبية حيث يذكر عمرو بن العاص في نفس الحديث قوله: "فوالله إنا لعنده إذ جاءه عمرو بن أمية الضمري، وكان

= عمرو بن لبيد، وأشهر من هذه الأقوال كلها عند الناس أنهم شبهوه برجل كان يعبد الشعرى وحده دون العرب، فنسبوه إليه لخروجه عن دين قومه." وهذا القول الأخير قال به أيضا ابن قتيبة والخطابي والدراقطني والزبير. انظر:

- السهيلي، **الروض الأنف في تفسير السيرة النبوية لابن هشام**، مرجع سابق، ج٢، ص٣٠٣.

- ابن حجر العسقلاني، **فتح الباري بشرح صحيح البخاري**، مرجع سابق، ج١، ص٤٠.

(١) رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما. انظر:

- البخاري، **الجامع الصحيح**، مرجع سابق، كتاب: بدء الوحي باب: قول النبي ﷺ: "نصرت بالرعب مسيرة شهر"، ج٣، ص١٠٨٧، حديث رقم: (٢٨١٦).

- القشيري، **صحيح مسلم**، مرجع سابق، كتاب: الجهاد والسير، باب: كتاب النبي ﷺ إلى هرقل يدعوه إلى الإسلام، ج٣، ص١٣٩٣، حديث رقم: (١٧٧٣).

(٢) وهو الكتاب الذي بعث به رسول الله ﷺ دحية الكلبي إلى هرقل عظيم الروم ونصه: بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد: فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين. ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ٦٤﴾ [آل عمران: ٦٤]". انظر:

- المرجع السابق، الموضع نفسه.

(٣) المرجع السابق، الموضع نفسه.

(٤) تقدم تخريجه صفحة (٤٧١) من هذا الكتاب.

رسول الله ﷺ قد بعثه في شأن جعفر وأصحابه،..."

إلا أن مرحلة التأسيس والبناء لا يمكن النظر إليها على أنها مرحلة متشابهة في فصولها، موحدة في مشاهدها، بل يمكن القول إنها ضمت بين وقائعها وأحداثها ما يجعلنا نخلص إلى تقسيمها إلى :

أ- من بدء الوحي إلى الهجرة الأولى إلى الحبشة (خمس سنين):

وهي لحظة البحث عن الإنسان المؤهل، لتشكيل القاعدة الصلبة (مفهوم الصفوة) للعمران، وهي مهمة جسيمة تكاد تكون مستحيلة بالنظر إلى الظروف المحيطة بالرسول ﷺ، وندرة الإمكانات المادية التي ينطبق عيها قانون المعطيات الصفرية. ولذلك كانت البداية الأولى هي هجرة كل منظور مادي أو طبيعي يراهن فقط على معطيات الواقع الحسي، ولا يتخذ من الإنسان منطلقه الأول في التغيير. ويمكن القول إذن، أن هذه اللحظة الأولى من لحظات ولبنات بناء صرح العمران هي لحظة الهجرة من المنظور الطبيعي المادي الاقتصادي -الذي تعتمده كثير من نظريات التغيير الاجتماعي[1]- نحو أنسنة الفعل التغييري العمراني وجعل الإنسان محور العملية العمرانية.

ب- من الهجرة الأولى إلى الحبشة إلى الهجرة إلى المدينة (ثمان سنين):

وهي لحظة بناء الإنسان وتأهيله وإعداده رسالياً، ليكون قادراً على تحمل الأعباء التنظيمية للدولة. ولذلك لم يؤمر ﷺ بقتال، وإنما أمر بالإعداد الرسالي للجماعة المؤمنة، حتى إذا استوى الأمر على سوقه تحول النبي ﷺ للبحث عن كيان اجتماعي

(١) عدّت نظريات التغيير الاجتماعي التي اتخذت من الفلسفة الماركسية خلفيتها النظرية والتفسيرية أن البنيات التحتية (الاقتصاد)، هي الكفيلة بإحداث تغييرات على مستوى البنيات الفوقية (الفكر-السياسة) متبنية أحد قوانين النظرية الماركسية وهو قانون التغيرات الكمية والتغيرات الكيفية. ويفيد هذا القانون أن إحداث أي تغيير كيفي ونوعي رهين بإحداث تغيير كمي عددي على مستوى قوى وعلاقات ووسائل الإنتاج، وهذا ما يتنافى مع سنن الله في الاجتماع والعمران، وأسهم في سقوط الماركسية على المستوى التطبيقي وفشلها السياسي والاقتصادي بعد أن لم تقو على النقد النظري الفلسفي.

يمنحه المنعة والنصرة بعد أن يكون قد آمن بالرسالة، لكن الروح القبلية كانت مسيطرة بقوة على السلوك العربي الجاهلي، فأفضل ما قيل له ﷺ أن يكون لتلك القبيلة التي قبلت أن تنصره الأمر من بعده كما هو حال قبيلة بني عامر بن صعصعة،[1] أو أن ينصروه من جهة العرب لا من جهة الفرس؛ أي أنهم لن يحيطوا بالأمر كله كما هو حال قبيلة بني شيبان،[2] وجواب مفروق وهانئ والمثنى.

ت- من الهجرة إلى المدينة إلى صلح الحديبية (ست سنين):

وهي لحظة بناء الأمن الاجتماعي والسياسي، ونسمي هذه اللحظة لحظة الهجرة من القبيلة إلى الدولة، وهي هجرة من قيم الولاء والعصبية للدم والنسب والقرابة، إلى الولاء للمشروع الرسالي الذي تمثله الدولة بقيادة الرسول ﷺ. ولم يكن لهذه الهجرة أن تحدث إلا من خلال عملية التأليف القلبي والنفسي والاجتماعي التي خاضها الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ -بتوفيق من الله- بكل تحدياتها ومعاناتها، حيث كانت تطفو على سطح العلاقات الاجتماعية ما يعكر صفو هذا التحول، مثل ذلك ما وقع في غزوة بني المصطلق وغيره مما سلفت الإشارة إليه.

أما مرحلة النصر والتمكين التي تلت صلح الحديبية -بحسب رأينا- فهي أيضاً يمكن تقسيمها إلى لحظتين تاريخيتين: الأولى من صلح الحديبية إلى فتح مكة، والثانية هي التي كانت بعد فتح مكة. نصطلح على اللحظة التاريخية الأولى الممتدة من صلح الحديبية إلى فتح مكة بلحظة الهجرة من السلطان السياسي إلى السلطان العمراني، أو من الدولة المحدودة بحدود جغرافية إلى العمران الممتدة آفاقه خارج حدود الجغرافيا. ونصطلح على اللحظة التاريخية التي افتتحت بغزوة فتح مكة باستكمال الهجرة من الدولة إلى إقامة العمران الإسلامي الرسالي العالمي.

---

(١) تقدم ذكر الرواية التي ذكرت ذلك مع تخريجها صفحة (٥٠٣-٥٠٤) من هذا الكتاب.

(٢) تقدم ذكر الرواية التي ذكرت ذلك مع تخريجها صفحة (٤١٣) من هذا الكتاب.

وفيما يلي ذكر للخطوات والإجراءات والعمليات السننية التي رافقت مرحلتي التأسيس والبناء، والنصر والتمكين.

أ- مرحلة التأسيس والبناء:[1]

إن الناظر في سيرته ﷺ لا يجد كبير عناء في الوقوف على أولوية البناء العقدي والنفسي والفكري للإنسان الرسالي في مشروع إقامة العمران البشري. فلا تكون بدايات العمران البشري مشرقة وواعدة بآمال واسشترافات النصر والتمكين في المستقبل القريب ما لم تستكمل إجراءات وعمليات التجهيز السنني المتكامل والمتوازن للطاقات والعناصر البشرية، والعمل على توفير جهودها، وعدم تبذير أو صرف قواها النفسية والفكرية في معارك هامشية، إنها القاعدة الصلبة التي تحمل على عاتقها أعباء وتكاليف إقامة الشهادة على العالمين، والتحقق بالوراثة العمرانية التي شاءها الله أن تكون لخير أمة أخرجت للناس. وقد كان الوحي يتنزل على رسول الله ﷺ فيتلقاه بقوة، ليعيد به صياغة نفوس وطبائع وأفكار، ويربي به الرعيل الأول، وفق منظومة التوحيد والتزكية والاستخلاف، وما ارتبط بها من قيم محركة للفعل الحضاري، ومحفزة للعطاء والإبداع، وبعيداً عن الدخول في مواجهات مع الآخر أو الانسياق وراء معارك هامشية تضر بالدعوة وتعطل إمكانات المضي قدماً نحو بناء العمران الإسلامي. "فالدارس لسيرته في مجال استثمار القوى البشرية على سبيل المثال، يلحظ بوضوح كيف تتحول هذه القوى البشرية الخاملة، التي كان يسحق بعضها نظام الرق والعبودية، ويستنزف الترف والعصبية بعضها الآخر، ويبدد الجهل والشرك ومظاهرهما قوى وطاقات المجتمع. فإذا بهذه القوى البشرية الخاملة، المهدورة الطاقة، تتحول بسرعة قياسية إلى طاقة بشرية ذات مواصفات نوعية قياسية نادرة!لم تملك

(١) لولا مخافة التطويل والخروج عن غرض البحث لأمكن تقديم استنتاجات سننية من خلال استقراء لتجارب، ومشاريع وحركات تغييرية فشلت في تحقيق أهدافها، وكانت الميزانية الحضارية لأخطائها وتبريراتها فادحة، بسبب عدم التنبه لمرحلة الانطلاقة والتأسيس، وغفلتها عن سنن الله في بناء العمران والاجتماع البشري.

النماذج البشرية والحضارية التقليدية المعاصرة لها، القدرة على مقاومة تأثيرها وإشعاعها الغلاب؛ سواء في ميادين المواجهة الجهادية، أو في ميادين المواجهة الفكرية، أو في ساحات الدعوة، أو في مجالات البناء والإعمار الاستخلافي. والنجاح نفسه نجده في مجالات التعبئة المكثفة للإمكانات المادية للدعوة والدولة والمجتمع،..."[1]

إن كل دارس للسيرة النبوية من منظور سنن حركة العمران والاجتماع البشري يلحظ ذلك الفارق الحضاري الذي أحدثه النبي ﷺ في الاستثمار النموذجي للإمكانات المادية والمعنوية، وقد تمثل ذلك التجهيز السنني المتكامل والمتوازن في وضع آليات الضبط والتحكم الاجتماعي، واستراتيجيات تنمية الإمكانات والقدرات الذاتية لقيادات وعناصر الدولة الإسلامية الوليدة، فاتجه النبي ﷺ إلى بناء المؤسسات التي تؤطر الاجتماع التربوي والسياسي والعسكري والاقتصادي، وتثبيت هياكل تنظيمية قوية وفاعلة بهدف تقوية شبكة العلاقات الاجتماعية. إن من سنن العمران والاجتماع البشري الكبرى المستنبطة من سيرته ﷺ هي مأسسة العمل والفعل العمراني، والانتقال به من مستوى الفردية والعفوية إلى مستوى التنظيم والمؤسسة.

وفي هذا الإطار يمكن فهم الدعائم الخمس الكبرى التي أقام عليها رسول الله ﷺ حركته الرسالية في بناء الاجتماع والعمران الإسلامي: المسجد، والصحيفة، والمؤاخاة، والجيش، والسوق. وإذا كنا قد فصلنا في هذه الدعائم في الفصل الثاني[2] من هذا الباب، فإن إيرادها هنا مرة أخرى فللدلالة على أنها تعبير عن نموذج حضاري جديد محكوم برؤية سننية متكاملة ترى في بناء المؤسسات ووضع المنظومة التنظيمية للمجتمع والدولة السبيل المبين لإقامة العمران البشري على قواعد متينة راسية. إنه منطق الأولويات، وتقديم الضرورات على الحاجات والتحسينات، وشحذ الفعالية

---

(١) برغوث، **الفعالية الحضارية والثقافة السننية**، مرجع سابق، ص٥٠-٥١.

(٢) تقدم ذكرها صفحة (٤٤٠) من هذا الكتاب، بعنوان فرعي: الفقه السنني النبوي وعمق الإنجازات التاريخية في تعزيز وتدعيم بنية الشروط الحاسمة لإقامة عمران إسلامي عالمي.

الإنجازية الحضارية للفرد والجماعة المسلمة، على اعتبار أن هذه الفعالية الإنجازية هي نقطة ارتكاز سنتي التدافع والتداول، فلا تحكم ولا إحاطة ولا استثمار لسنتي التدافع والابتلاء دون التحقق بشرط الفعالية. ولعمري إن هذا المنطق هو منطق سنني واقعي نموذجي ضرب المثل الأعلى في استيعاب حركة التاريخ، والإحاطة بشروط الانتفاع الكامل بالأقدار الإلهية التي هي سنن الله تعالى أجراها على خلقه.

- التعليم فداء الأسرى:

ذكر ابن سعد بسنده عن عامر الشعبي[1] قال: "أسر رسول الله ﷺ يوم بدر سبعين أسيراً، وكان يفادي بهم على قدر أموالهم، وكان أهل مكة يكتبون، وأهل المدينة لا يكتبون، فمن لم يكن عنده فداء دفع إليه عشرة غلمان من غلمان المدينة فعلمهم، فإذا حذقوا فهو فداؤه."[2] وعند أحمد من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: "كان ناس من الأسرى يوم بدر لم يكن لهم فداء، فجعل رسول الله ﷺ فِداءَهُم أن يعلموا أولاد الأنصار الكتابة."[3] ويبدو أن استراتيجية تعليم الصبيان الكتابة مقابل الفداء التي سلكها رسول الله ﷺ مع أسرى بدر تحمل في ذاتها دلالات عديدة، فهي من جهة ستحول المجتمع المسلم إلى مجتمع علم ومعرفة عن طريق إتقان مهارتي القراءة والكتابة،[4] ومن جهة أخرى ستلبي حاجة لدى الصبيان المولعين بحب الاستطلاع،

---

(١) هو عامر بن شرحبيل الشعبي علامة التابعين، ثقة مشهور. انظر:

- ابن حجر العسقلاني، **تقريب التهذيب**، مرجع سابق، ص٤٧٥.

(٢) وهو حديث مرسل، وفيه من هو متروك الحديث، لكن له شواهد تقويه. انظر:

- ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، مرجع سابق، ج١، ص٥١.

(٣) رواه أحمد في مسنده، وفي سنده: علي بن عاصم، صدوق يخطئ ويصر، وقد وثقه الإمام أحمد. انظر:

- الشيباني، **مسند الإمام أحمد**، مرجع سابق، ج٤، ص٩٢، حديث رقم: (٢٢١٦).

- ابن حجر العسقلاني، **تقريب التهذيب**، مرجع سابق، ص٦٩٩.

(٤) نقل عبد الحي الكتاني قول أبي الوفاء نصر الهوريني: "فبذلك كثرت فيهم الكتابة، وصارت تنتشر في كل ناحية فتحها الإسلام، في حياته عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وبعده، حتى بلغت عدة كتّابه عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ٤٢ رجلا." انظر:

- الكتاني، **نظام الحكومة النبوية المسمى التراتيب الإدارية**، مرجع سابق، ص١٣١.

الراغبين في التفوق وتحقيق الذات. ثم إن "قبول النبي ﷺ تعليم القراءة والكتابة بدل الفداء في ذلك الوقت، الذي كان فيه بأشد الحاجة إلى المال يرينا سمو الإسلام في نظرته إلى العلم والمعرفة، وإزالته الأمية..."[1]

ففي لحظة حاجة الأمة والنبي ﷺ إلى شهداء ومدافعين عن الدولة الجديدة الفتية، وأن يتخذ من الأسرى وسيلة ضغط سياسية، أو صفقة اقتصادية رابحة، اتجه إلى خيار يعد من الخيارات المفصلية في تاريخ العمران البشري؛ وهو خيار تعليم الصبيان الكتابة فداء للأسير. فلم يكن ﷺ وهو يقيم عمراناً إنسانياً عالمياً أن يغفل عن حقيقة التأسيس المكين والبناء المتين لهذا العمران وحراسته، وهو لم يزل في لحظة التأسيس والبناء وإثبات الذات ورد هجمات الأعداء. ولعل غفلة كثير من الثورات والدعوات ومناهج التغيير عن هذه الحقيقة ضخم لديها لحظة الإعداد المادي والتربوي، فأجلت الحسم في المشروع العلمي إلى ما بعد إنهاء عملية التدافع الحضاري مع الخصم[2] المخالف، وهو ما ألحق بهذه الدعوات والمناهج هزائم تترى توالت على الأمة وعمقت من أزمة البديل وأمل التغيير.

إنّ من سنن الله تعالى في خلقه اختلاف ألسنة الناس وتعدد لغاتهم، والتعدد اللغوي عنوان الثراء الثقافي والتنوع الحضاري؛ إذ إنّ اللغة ليست مجرد نظام من الرموز والإشارات المتعارف حولها للتواصل بين الناس، وإنما هي أيضاً منظومة ثقافية ونسق حضاري دال على هوية مجتمع ما. لذلك فالاختلاف اللغوي هو في حقيقته اختلاف ثقافي وحضاري، وتلك مشيئة الله وسنته. ولما كان من سنن الخلق التعارف والتعاون، وكان الخلق مختلفين في ألسنتهم ولغاتهم، كان تعلم اللغات شرطاً لازماً في تحقيق سنة التعارف والتعاون. وقد وجد الرسول ﷺ لما هاجر إلى المدينة نفسه أمام

(١) الصلابي، **السيرة النبوية: عرض وقائع وتحليل أحداث**، مرجع سابق، ص٤٣٥.

(٢) تجدر الإشارة إلى أن لفظ "الخصم" لا يحمل هنا أي مدلول قيمي، وإنما هو وصف لحال المعترض المطالب بالتوسل بأدلة على الدعوى التي يعترض عليها.

تعدد لغوي داخل المدينة وخارجها؛ فهناك اليهود حيث يتكلمون العبرية، وهناك الحبشة الذين كانوا يقدمون إما للعمل أو للتجارة، أو من قدم منهم مع الصحابة الذين كانوا بالحبشة بقيادة جعفر بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يوم فتحت خيبر، كما أن هناك شعوباً ومجتمعات تتكلم لغات أخرى مثل الفارسية والسريانية وغيرهما تقتضي الطبيعة العالمية للرسالة تعلمها وإتقانها. وقد استحضر رسول الله ﷺ في البدايات الأولى للبناء العمراني آليات وإجراءات توظيف هذا التحدي اللغوي التواصلي سنياً بما يحقق أهداف الرسالة، ويثبت قواعد العمران فكان أن منح للترجمة قيمتها المعرفية والتواصلية والحضارية بأن دعا زيد بن ثابت إلى تعلم لغة اليهود، ففي الصحيح عن زيد بن ثابت: "أن النبي ﷺ أمره أن يتعلم كتاب[1] اليهود، حتى كتبت للنبي ﷺ كتبه، وأقرأته كتبهم إذا كتبوا إليه."[2] وها هو زيد بن ثابت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يحدثنا ابنه خارجة عن التشجيع وحسن التقدير الذي لقيه أبوه زيد من رسول الله ﷺ حين قدم المدينة، قال زيد: "ذهب بي إلى رسول الله ﷺ فأعجب بي، فقالوا: يا رسول الله هذا غلام من بني النجار معه مما أنزل الله عليك بضع عشرة سورة، فأعجب ذلك رسول الله ﷺ وقال: "يا زيد تعلم لي كتاب يهود، فإني والله ما آمن يهود على كتابي" قال زيد: فتعلمت لهم كتابهم ما مرت خمس عشرة ليلة حتى حذقته، وكنت أقرأ له كتبهم إذا كتبوا إليه، وأجيب عنه إذا كتب."[3] وإذا كان زيد بن ثابت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قد حفظ بضع عشرة سورة،

---

(١) المراد بالكتاب الخط. انظر:

- ابن حجر العسقلاني، **فتح الباري بشرح صحيح البخاري**، مرجع سابق، ج١٣، ص١٨٦.

(٢) البخاري، **الجامع الصحيح**، مرجع سابق، كتاب: الأحكام، باب: ترجمة الحكام، هل يجوز ترجمان واحد؟، ج٦، ص ٢٦٣١، وقد أخرجه البخاري تعليقاً ووصله في كتاب التاريخ.

(٣) رواه البخاري في تاريخه، وابن سعد في الطبقات، وأبو داود في سننه، والترمذي في جامعه، وقال: "حديث حسن صحيح". وأحمد في مسنده، وهذه الروايات كلها من طريق عبد الرحمن بن أبي الزناد عن أبيه عن خارجة بن زيد بن ثابت عن أبيه، وبهذا السند أخرج البخاري في صحيحه تعليقاً قول خارجة بن زيد بن ثابت عن زيد بن ثابت أن النبي ﷺ أمره أن يتعلم كتاب اليهود، حتى كتبت للنبي ﷺ كتبه وأقرأته كتبهم إذا كتبوا إليه" وعبد الرحمن بن أبي الزناد ضعفه بعضهم، كابن معين وأبي حاتم والنسائي =

فإن تعلمه لغة اليهود، ولغات أخرىٰ مثل السريانية؛ لأنها لسان اليهود أيضاً كما ذكر ابن حجر والسخاوي وعبد الحي الكتاني (توفي: ١٣٨٢هـ/ ١٩٦٢م) في خمس عشرة ليلة أو سبع عشرة ليلة[١] كما في رواية أخرىٰ وهو ابن إحدىٰ عشرة سنة دليل علىٰ عظيم اهتمام النبي ﷺ بمسألة الترجمة وتكوين المترجمين الأكفاء من الطاقات الشابة المبدعة مثل زيد بن ثابت تيسيراً لمعرفة الآخر، وفهم أحواله وطبائعه، والتأثير في مواقفه ومعتقداته، والحذر من مكائده وتربصاته، وسبيلاً لانتقال المعارف وتراكمها، وضماناً لتبادل المعلومات واستثمارها بدقة وسرعة لاتخاذ القرارات المناسبة ووضع الخطط الملائمة.

= وضعفه آخرون كالعجلي والترمذي، قال ابن حجر: "فيكون غاية أمره أنه مختلف فيه، فلا يتجه الحكم بصحة ما ينفرد به بل غايته أن يكون حسنا." انظر:

- البخاري، **التاريخ الكبير**، مرجع سابق، ج٣، ص٣٨٠.
- ابن سعد، **الطبقات الكبرىٰ**، مرجع سابق، ج٢، ص٢٠.
- السجستاني، **سنن أبي داود**، مرجع سابق، ج٢، ص٣٤٢، كتاب: العلم، باب: رواية حديث اهل الكتاب، حديث رقم: (٣٦٤٥).
- والترمذي، **جامع الترمذي**، كتاب: الأدب، باب: في تعليم السريانية، ج٤، ص٣٦٥، حديث رقم: (٢٧١٥).
- الشيباني، **مسند الإمام أحمد**، مرجع سابق، ج٣٥، ص٤٩٠، حديث رقم: (٢١٦١٨).
- البخاري، **الجامع الصحيح**، مرجع سابق، كتاب: الأحكام، باب: ترجمة الحكام، هل يجوز ترجمان واحد؟، ج٦، ص ٢٦٣١.
- ابن حجر العسقلاني، **فتح الباري بشرح صحيح البخاري**، مرجع سابق، ج١٣، ص١٨٧.

(١) ابن حجر العسقلاني، **فتح الباري بشرح صحيح البخاري**، مرجع سابق، ج١٣، ص١٨٦، وانظر أيضاً:

- ابن عساكر، أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله الشافعي. **تاريخ مدينة دمشق** ...، دراسة وتحقيق: علي شيري، بيروت: دار الفكر، ط١، (١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م)، ج١٩، ص٣٠٢-٣٠٣.
- السخاوي، **التحفة اللطيفة في أخبار المدينة الشريفة**، مرجع سابق، ج١، ص٣٦٥.
- الكتاني، **نظام الحكومة النبوية المسمىٰ بالتراتيب الإدارية**، مرجع سابق، ص١٩٤.

- الإحصاء أو المسألة الديموغرافية السكانية:

الإحصاء علم يبحث في طرق جمع المعطيات والبيانات المتعلقة بالظواهر الطبيعية والإنسانية وتسجيلها ووصفها وتصنيفها، ودراسة العلاقات بين مؤشراتها لمعرفة ما يتحكم فيها، واتخاذ القرارات المناسبة وفق التائج والبيانات المحصل عليها. وقد ثبت في السيرة النبوية إعمال النبي ﷺ للإحصاء وهو يخطط لمستقبل العمران الإسلامي ويهيئ له شروط التأسيس والبناء، فقد "نزل رسول اللهّ ﷺ أدنى بدر عشاء ليلة جمعة لسبع عشرة مضت مِن شهر رمضان، فبعث علياً والزبير وسعد بن أَبي وقاص وبسبس بن عمرو يتحسسون خبر المشركين على الماء، فوجدوا روايا قريش فيها سقاؤهم، فأخذوهم. وبلغ قريشاً خبر رسول الله ﷺ، وأنه قد أخذ سقاءهم، فماج العسكر وأتي بالسقاء إلى رسول الله ﷺ، فقال: أَين قريش؟ فقالوا: خلف هذا الكثيب الّذي ترى. قال: كم هم؟ قالوا: كثير، قال: كم عددهم؟ قالوا: لا ندري، قال: كم ينحرون؟ قالوا: يوماً عشراً ويوماً تسعاً، فقال ﷺ: القوم ما بين الألف والتسعمائة، فكانوا تسعمائة وخمسين إنساناً، وكانت خيلهم مائة فرس،..."[1]

كما يُثبت استقراء وقائع السيرة تعدد مناسبات وعمليات الإحصاء التي أمر بها النبي ﷺ، وقد تم ذلك على الأقل لهدفين رئيسين: الأول معرفة الطاقات والقدرات البشرية للجيش الإسلامي التي سيبنى عليها أي تحرك عسكري أو قرار جهادي.

---

(١) رواه أبو داود في سننه بسند صحيح، وأحمد في مسنده، والهيثمي في مجمعه، وقال: "ورجال أحمد رجال الصحيح غير حارثة بن مضرب وهو ثقة." وابن سعد في طبقاته، والطبري في تاريخه من طريق ابن إسحاق وإسناده حسن. انظر:

- السجستاني، **سنن أبي داود**، مرجع سابق، كتاب: الجهاد، باب: في الأسير ينال منه ويضرب ويقرر، ج٢، ص٦٤، حديث رقم: (٢٦٨١).
- الشيباني، **مسند الإمام أحمد**، مرجع سابق، ج٢، ص٢٥٩، حديث رقم: (٩٤٨).
- الهيثمي، **مجمع الزوائد ومنبع الفوائد**، مرجع سابق، ج٦، ص٧٦.
- ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، مرجع سابق، ج٢، ص١٤.
- الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، مرجع سابق، ج٢، ص٢٨.

والثاني: معرفة تطور البعد الديموغرافي السكاني بالمدينة، وعدد المعتنقين الجدد للإسلام. فقد روى البخاري في صحيحه أن النَّبِيُّ ﷺ قال: "اكْتُبوا لي مَنْ تَلَفَّظَ بِالْإِسْلَامِ مِنْ النَّاس فكَتَبْنَا لَهُ أَلْفاً وَخَمْسَ مِائَةِ رَجُلٍ. فقلنا: نخاف ونحن أَلْفٌ وَخَمْسُ مِائَة. فَلَقَدْ رَأَيْتُنَا ابْتُلِينَا حتى إن الرَّجُل ليُصلِّي وَحْدَهُ وهو خائف."[1] وفي رواية مسلم كما سيأتي "احصوا" بدل "اكتبوا"، وعملية الإحصاء أعم وأشمل من عملية الكتابة، والكتابة جزء من الإحصاء، فتكون الكتابة هنا في رواية البخاري بمعنى الإحصاء، قال ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "قوله: "فقلنا: نخاف"، هو استفهام تعجب وحذفت منه أداة الاستفهام وهي مقدرة، وزاد أبو معاوية في روايته:" فقال إنكم لا تدرون لعلكم أن تبتلوا"، وكأن ذلك وقع عند ترقب ما يخاف منه، ولعله كان عند خروجهم إلى أحد أو غيرها. ثم رأيت في شرح ابن التين الجزم بأن ذلك كان عند حفر الخندق. وحكى الداودي احتمال أن ذلك وقع لما كانوا بالحديبية لأنه قد اختلف في عددهم هل كانوا ألفاً وخمسمائة أو ألفاً وأربعمائة أو غير ذلك مما سيأتي في مكانه وأما قول حذيفة: "فلقد رأيتنا ابتلينا... إلخ"، فيشبه أن يكون أشار بذلك إلى ما وقع في أواخر خلافة عثمان من ولاية بعض أمراء الكوفة كالوليد بن عقبة حيث كان يؤخر الصلاة أو لا يقيمها على وجهها، وكان بعض الورعين يصلي وحده سراً، ثم يصلي معه خشية من وقوع الفتنة، وقيل كان ذلك حين أتم عثمان الصلاة في السفر وكان بعضهم يقصر سراً وحده خشية الإنكار عليه، ووهم من قال: إن ذلك كان أيام قتل عثمان؛ لأن حذيفة لم يحضر ذلك، وفي ذلك علم من أعلام النبوة من الإخبار بالشيء قبل وقوعه، وقد وقع أشد من ذلك بعد حذيفة في زمن الحجاج وغيره."[2]

ولعل سياق ترجمة البخاري وإيراده الحديث في كتاب الجهاد والسير دال على أن الفئة الاجتماعية المعنية بالإحصاء هم المقاتلة؛ أي أعضاء الجيش الإسلامي دون

---

(١) البخاري، **الجامع الصحيح**، مرجع سابق، كتاب: الجهاد والسير، باب: كتابة الامام الناس، ج٣، ص١١١٤، حديث رقم: (٢٨٩٥).

(٢) ابن حجر العسقلاني، **فتح الباري بشرح صحيح البخاري**، مرجع سابق، ج٦، ص١٧٨.

احتساب النساء والصبيان، والشاهد على ذلك "فَكَتَبْنَا لَهُ أَلْفاً وَخَمْسَ مِائَةِ رَجُلٍ" وأيضاً قول الصحابة متعجبين "نَخَافُ وَنَحْنُ أَلْفٌ وَخَمْسُ مِائَةٍ،" فلا يعقل أن يدفع الصحابة عنهم الخوف إن كان تعدادهم أَلْفاً وَخَمْس مائة فيهم النساء والصبيان، وكيف يدفع هؤلاء الخوف عن أنفسهم؟ فكيف يدفعونه عن المدينة؟ وقول ابن حجر الذي تقدم "ولعله كان عند خروجهم" يقصد الإحصاء، وقدم ثلاثة احتمالات: عند خروجه ﷺ إلى أحد أو غيرها، يوم حفر الخندق، يوم الحديبية. ولعل أرجح الاحتمالات وأقربها إلى الصواب في تحديد زمن الإحصاء اعتماداً على رواية البخاري هو ما بين أحد والخندق. والذي جعلنا نذهب إلى ذلك:

- عدد من خرج في أحد من المسلمين كان حوالي ألف،[١] قاتل منهم الثلثان بعد أن انسحب ثلث الجيش[٢] في الطريق بقيادة رأس النفاق عبد الله بن أبي.
- أن عدد من خرج للقتال يوم الخندق كان ثلاثة آلاف.[٣] وأحد كانت في الثالثة والخندق في الخامسة، فلعل هذا الإحصاء كان السنة الرابعة بعد إجلاء بني النضير[٤] حيث شعر الصحابة باسترجاع معنوياتهم القتالية، فلذلك

---

(١) رواه ابن إسحاق، وقد صرح فيه بالتحديث بسند جمعي، وهو حسن إلا أنه مرسل، وأخرجه البيهقي في الدلائل بسند صحيح. انظر:

- ابن هشام، **السيرة النبوية**، مرجع سابق، ج٢، ص٦٤-٦٥.
- البيهقي، **دلائل النبوة ومعرفة أحوال الشريعة**، مرجع سابق، ج٣، ص٢٢٠-٢٢١.

(٢) البخاري، **الجامع الصحيح**، مرجع سابق، كتاب المغازي، باب غزوة أحد، ج٤، ص١٤٨٨، حديث رقم: (٣٨٢٤)، وانظر أيضاً:

- القشيري، **صحيح مسلم**، مرجع سابق، كتاب: صفات المنافقين وأحكامهم، ج٤، ص٢١٤٢، حديث رقم: (٢٧٧٦).
- ابن هشام، **السيرة النبوية**، مرجع سابق، ج٢، ص٦٤-٦٥.

(٣) ابن هشام، **السيرة النبوية**، مرجع سابق، ج٢، ص٢٢٠.

(٤) ذكر أهل المغازي والسير أن غزوة بني النضير وقعت في السنة الرابعة بعد بئر معونة وأحد، إلا ما كان من قول ابن شهاب عن عروة أنها كانت بعد بدر بستة أشهر، كما روى ذلك البخاري تعليقاً، والحاكم، =

استغربوا أن يصدر منهم خوف وهم ألف خمس مائة.

- أن من شهد الحديبية لا ينبغي أن يقطع بأنه هو عدد المقاتلة من المسلمين على التمام؛ لأنه ﷺ خرج معتمراً معظماً للبيت لا يريد حرباً ولا قتالاً،[1] كما ذكر ابن إسحاق أيضاً أن كثيراً من الأعراب ممن أسلموا قد أبطأوا على رسول الله ﷺ فلم يخرجوا معه.

لكن جاء في رواية مسلم عن حذيفة قال: "كنا مع رسول الله ﷺ فقال: أحصوا لي كم يلفظ الإسلام؟ قال: فقلنا: يا رسول الله، أتخاف علينا ونحن ما بين الست مائة إلى السبع مائة؟ قال: إنكم لا تدرون لعلكم أن تبتلوا. قال: فابتلينا، حتى جعل الرجل منا لا يصلي إلا سراً."[2] وجمعاً بين روايتي البخاري ومسلم، يمكن القول: إن الإحصاء الذي أشارت إليه رواية مسلم قد تم قبل غزوة أحد، بدليل أن من خرج مع

= وصححه، وإن كان ذكر عائشة فيه غير محفوظ كما نبه على ذلك الإمام البيهقي في الدلائل، وهو وهم من ابن شهاب أو غلط عليه، كما قال ابن القيم، وقد أيد الرأي الأول ابن إسحاق وغيره، ورجحه ابن حزم وابن القيم، وابن سيد الناس، وابن حجر. انظر:

- البخاري، **الجامع الصحيح**، مرجع سابق، كتاب: المغازي، باب: حديث بني النضير، ج٤، ص١٤٧٦.
- النيسابوري، **المستدرك على الصحيحين**، مرجع سابق، ج٢، ص٤٨٢.
- البيهقي، **دلائل النبوة ومعرفة أحوال الشريعة**، مرجع سابق، ج٣، ص١٧٨.
- ابن قيم الجوزية، **زاد المعاد في هدي خير العباد**، مرجع سابق، ج٣، ص٢٤٩.
- ابن هشام، **السيرة النبوية**، مرجع سابق، ج٢، ص١٩٠.
- ابن حزم. **جوامع السيرة**، مرجع سابق، ص١٠٩.
- ابن سيد الناس، **عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير**، مرجع سابق، ج٢، ص٧٣.
- ابن حجر العسقلاني، **فتح الباري بشرح صحيح البخاري**، مرجع سابق، ج٧، ص٣٣٠.

(١) ابن هشام، **السيرة النبوية**، مرجع سابق، ج٢، ص٣٠٨، وسنده حسن.

(٢) القشيري، **صحيح مسلم**، مرجع سابق، كتاب: الإيمان، باب: جواز الاستسرار بالايمان للخائف، ج١، ص١٣١، حديث رقم: (١٤٩).

رسول الله ﷺ يوم أحد كانوا ألفاً، ثم وقع ما وقع من انسحاب المنافقين، وقد أمر الرسول ﷺ بكتابة كل من تلفظ بالإسلام، فيكون المنافقون داخلين في هذا العد. ثم إن عدد من شهد بدراً كانوا ثلاث مائة وبضعة عشر رجلاً،[١] "ولم يعاتب أحد تخلف عنها، إنما خرج رسول الله ﷺ يريد عير قريش،"[٢] ولم يخرج معه إلا من كان حاضراً متجهزاً، فيكون عدد المقاتلين يومها أكثر من العدد الذي تجهز لبدر، لكنه دون عدد من خرج يوم أحد.

وقد يشكل على البعض قول حذيفة: "فابتلينا، حتى جعل الرجل منا لا يصلي إلا سراً؛" إذ كيف حصل لهم ذلك الابتلاء، ومتى حصل؟ وقد أجاب أبو العباس القرطبي (توفي ٦٥٦هـ) رَحِمَهُ ٱللَّهُ فقال: "يعني بذلك والله أعلم ما جرى لهم في أول الإسلام بمكة حين كان المشركون يؤذونهم ويمنعونهم من إظهار صلاتهم حتى كانوا يصلون سراً."[٣] وهذا وهم منه رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ إذ راوي الحديث الصحابي حذيفة بن اليمان مدني،[٤] والعدد المذكور في الحديث لا يصح أن يكون مناسباً لمسلمي مكة قبل الهجرة، فقد كان عددهم دون ذلك بكثير، ثم إن قول الصحابة مستغربين: "أتخاف علينا" دليل آخر على أن هذا الإحصاء لم يكن بمكة حيث مازال من بقي من الصحابة بمكة، ولم يهاجروا إلى الحبشة يخافون على إيمانهم من ابتلاءات وأذى المشركين، وقوله ﷺ: "إنكم لا تدرون لعلكم أن تبتلوا"[٥] زيادة في أن هذا الإحصاء لم يكن بمكة؛

---

(١) البخاري، **الجامع الصحيح**، مرجع سابق، كتاب: المغازي، باب: عدة أصحاب بدر، ج٤، ص١٤٥٦، حديث رقم: (٣٧٣٩-٣٧٤٢).

(٢) المرجع السابق، كتاب: المغازي، باب: قصة غزوة بدر، ج٤، ص١٤٤٥، حديث رقم: (٣٧٣٥).

(٣) القرطبي، أبو العباس أحمد بن عمر بن إبراهيم. **المفهم لما أشكل من تلخيص صحيح مسلم**، تحقيق: محيي الدين مستو وآخرون، دمشق: دار ابن كثير ودار الكلم الطيب، ط١، ١٩٩٦م، ج١، ص٣٦٥.

(٤) آخى النبي ﷺ بين حذيفة بن اليمان حليف بني عبد الأشهل وعمار بن ياسر حليف بني مخزوم. انظر: - السهيلي، الروض الأنف في تفسير السيرة النبوية لابن هشام، مرجع سابق، ج٢، ص٣٥٢.

(٥) تقدم تخريجه صفحة (٥٣١) من هذ الكتاب.

موطن تعرض المؤمنين الأوائل للابتلاء، بخلاف ما كان عليه حالهم بالمدينة من الأمن والاستقرار. وإذا كان أبو العباس القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ قد وقع في الوهم، فإن من الباحثين المعاصرين من حاول تحرير هذا الإشكال فأجاب قائلاً: "أما الابتلاء والصلاة خائفاً أو سراً، فالقرب أن ذلك كان بغزوة الخندق، ففيها اشتد الخوف على الصحابة حين تكالبت عليهم الأحزاب"[1] لكننا لا نسلم لهذا الباحث بما قال، ذلك أنه إذا كان الخوف قد اشتد على الصحابة وزلزلوا زلزالاً شديداً، وبلغت القلوب الحناجر كما أخبر بذلك القرآن في سورة الأحزاب في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُواْ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ ﴾ [الأحزاب: ٩-١١]، وأنهم عانوا شدة الخوف، وشدة الجوع، وشدة البرد، كما أخبر بذلك حذيفة بن اليمان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ،[2] إلا أنهم لم يبتلوا بالإسرار بالصلاة في هذه الغزوة، ولم يرد في ذلك أي دليل، وإنما الذي حصل هو أن المشركين شغلوهم عن الصلاة، ومنها صلاة العصر حتى صلوها بعد غروب الشمس،[3] كما لا يتصور إسرار الصحابة بالصلاة إلا بعد وقوع الفتن بعد

---

(١) بلكا، إلياس. "قيمة المستقبلية في الحديث النبوي"، ضمن أعمال ندوة القيم الحضارية في السنة النبوية، دبي: كلية الدارسات الإسلامية والعربية، ط١، (١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م)، ج١، ص٣٧٣.

(٢) أخرجه ابن إسحاق من طريق يزيد بن زياد عن محمد بن كعب القرظي، وهي أوفى الروايات وأتمها وأحسنها. وأحمد، وفيه قول حذيفة: "فما قام رجل من القوم من شدة الخوف، وشدة الجوع، وشدة البرد، فلما لم يقم أحد، دعاني رسول الله ﷺ... " الحديث. وأصله في الصحيحين. انظر:

- ابن هشام، **السيرة النبوية**، مرجع سابق، ج٢، ص٢٣٢.

- الشيباني، **مسند الإمام أحمد**، مرجع سابق، ج٣٨، ص٣٥٨، حديث رقم: (٩٤٨).

(٣) رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما. انظر:

- البخاري، **الجامع الصحيح**، مرجع سابق، كتاب: المغازي، باب: غزوة الخندق، ج٤، ص١٥٠٩، حديث رقم: (٣٨٨٥- ٣٨٨٦).

- القشيري، **صحيح مسلم**، مرجع سابق، كتاب: المساجد، باب: التغليظ في تفويت صلاة العصر، ج١،

وفاته ﷺ. وقد أمر رسول الله ﷺ بلزوم البيوت في الفتن وعدم شهودها إلى غير ذلك، ولذلك قال النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في شرحه لصحيح مسلم: "فلعله كان في بعض الفتن التي جرت بعد النبي ﷺ، فكان بعضهم يخفي نفسه ويصلي سراً مخافة من الظهور والمشاركة في الدخول في الفتنة والحروب والله أعلم."[1] وإلى هذا التفسير وبأوعب منه أشار ابن حجر في قول له أوردناه سابقاً. وهذا وأمثاله أوفق تفسير وأجوده وأنسبه لسياق الأحداث والوقائع.

ومن خلال ما تقدم يكون الإحصاء الذي أمر به النبي ﷺ قد وقع على الأقل مرتين كما هو ظاهر من روايتي البخاري ومسلم، ولا يستبعد أن يتكرر هذا النظر الاستراتيجي منه ﷺ أو أن يكون متابعاً للتحول الديمغرافي في مجتمع المدينة، وهو يخوض معتركات التدافع والابتلاء، بل الثابت عنه ﷺ أن كان يكتب من خرج معه في كل غزاة فيعرف عدد المقاتلين. ولعل العملية الإحصائية ليست مجرد عد وحساب، وإنما هي خطوة أولى من خطوات التخطيط "الاستراتيجي" المؤسس على قاعدة بيانات دقيقة ومتجددة، تقدم معرفة أولية بحجم الإمكانات والموارد البشرية، وتبنى عليها القرارات السليمة والخطط الناجحة. إن القيمة العمرانية للإحصاء وآثاره المستقبلية لا تخفى على النظر السديد، والفكر الرشيد في فهم المرحلة التي بلغها العمران، وتقويمها، والوقوف على الفرص التي يتيحها، والتهديدات المتوقعة بناء على نتائج ذلك الإحصاء، وإعداد الشروط الكفيلة بالنهوض بمعطيات الواقع نحو الأفضل.

من هنا كان التنبيه على أهمية العنصر الديموغرافي في فهم حركة العمران الإسلامي في مرحلة التأسيس والبناء، ذلك أن للسلوك الديموغرافي للإنسان

ص٤٣٦، حديث رقم: (٦٢٧). وباب: الدليل لمن قال: الصلاة الوسطى هي صلاة العصر، ج١، ص٤٣٦، حديث رقم: (٦٢٧).

(١) النووي، يحيى بن شرف الدين. **المنهاج في شرح صحيح مسلم بن الحجاج**، تحقيق: الشيخ خليل مأمون، بيروت: دار المعرفة، (١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م)، ج٢، ص١٨٠-١٨٠.

وللجماعة، والقيم والمعتقدات التي تؤطر فهمهما لهذا السلوك أدواراً لا تخفى في توجيه العديد من الأحداث والوقائع الاجتماعية، والاقتصادية، والسياسية والعسكرية، والرفع من درجة الفعالية الحضارية متى كان هذا السوك الديموغرافي مصحوباً بدافعية وإيجابية.

إن للمسألة الديموغرافية السكانية مركزيتها في مرحلة التأسيس والبناء، حيث يفيد البحث في ديموغرافية الصحابة[1] كيف كان المجتمع الناشئ في المدينة يعاني من ضعف الولادات ومن قصر مدة الخصوبة، مما حذا بالنبي ﷺ إلى تشجيع السلوك الزواجي الإنجابي بهدف تمكين الاجتماع الإسلامي من شروط البقاء والاستمرار وتحقيق التوازن الديموغرافي بكونه شرطاً في البناء العمراني.

ب- مرحلة النصر والتمكين:

إن مرحلة التأسيس والبناء غير مرحلة النصر والتمكين، وإن كانت المرحلة الثانية استمراراً وتطويراً للمرحلة الأولى من حيث هي ثمرة من ثمراتها، وهي كسابقتها خاضعة لسنن ثابتة ومطردة، "فإن التمكين لا يأتي عفواً، ولا ينزل اعتباطاً ولا يخبط خبط عشواء. بل إن له قوانينه التي سجلها الله تعالى في كتابه الكريم،

---

(١) كتب المستشرق Charles Pellat مقالاً بعنوان: "هل يمكن معرفة معدل المواليد في زمن النبي؟: البحث عن طريقة"، ترجمة: فاطمة عصام صبري، **مجلة التراث العربي**، دمشق: العدد(٣٢)، السنة (٨)، ١٩٨٨م، ص٣٤-٦٨.

كما تناولت إحدى المتابعات العلمية المقال السالف الذكر بعنوان: "هل يمكن معرفة معدل المواليد في زمن النبي ﷺ؟ البحث عن طريقة" شارلز بيلا، متابعة مصطفى نشاط ومحمد منفعة، في **مجلة كنانيش**، مجلة متخصصة في الديموغرافيا التاريخية، وجدة: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، عدد (٤)، (صيف-خريف٢٠٠٢م)، ص١٩٧-٢٠٤.

كما أنجز الباحث محمد حالي بحثاً بعنوان: "الزيجات والولادات عند عينة من الصحابة المهاجرين البدريين"، وهو أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في الآداب، تخصص تاريخ، وحدة التكوين والبحث الديموغرافية التاريخية، إشراف: محمد منفعة، التي نوقشت يوم ٢٠-٠٦-٢٠٠٧م بكلية الآداب، جامعة محمد الأول بوجدة، المملكة المغربية.

ليعرفها عباده المؤمنون، ويتعاملوا معها على بصيرة."[1] وقد اعتبرنا سابقاً أن مرحلة النصر والتمكين في السيرة النبوية التي تلت غزوة صلح الحديبية تتفرع إلى لحظتين تاريخيتين: تمتد اللحظة التاريخية الأولى من صلح الحديبية إلى فتح مكة، واصطلحنا عليها بلحظة الهجرة من السلطان السياسي إلى السلطان العمراني، أو من الدولة المحدودة بحدود جغرافية إلى العمران الممتدة آفاقه خارج حدود الجغرافيا. ولذلك وقع في هذه اللحظة انسجاماً واستثماراً لسنن الله في العمران:

- إرسال الرسل إلى الملوك والأمراء، وما يدل عليه ذلك من تدشين مرحلة عالمية الرسالة، والخروج من الخصوصية القبلية إلى الكونية العالمية، ومن حالة الأميين إلى حالة الظهور الكلي الأولي للدين، وما يتطلبه هذا التحول من الرسوخ في السنن التي تحكم عالمية العمران، أولها: سنة الاختلاف، وسنة التعارف، وسنة التعاون، وسنة التدافع، وسنة التداول. ولعل دراسة نموذج واحد من نماذج رسائله ﷺ إلى الملوك والأمراء يكشف بجلاء التحكم والاستثمار النبوي الأمثل لهذه السنن.
- إنهاء الوجود اليهودي الماكر الذي تتعارض أدواره وبنيته وطبيعته مع الآفاق الجديدة للرسالة العالمية الخاتمة، وتتنافى مع سنن الله في التسخير والاستخلاف، فالمكون اليهودي بطبيعته إقصائي عنصري رافض للتعاون والتعارف، يعمل على محو الاختلاف، وتهديد خصوصيات الشعوب وهوياتها الثقافية، ولا يؤمن بالتدافع بين الحضارات، فمنطق اليهودي منطق صراعي تنافري تناحري أحادي. ولعل كل ذلك قد حذا بالنبي ﷺ إلى فتح خيبر.
- فتح مكة التي توجت بها هذه اللحظة، حيث أسلم غالب أهلها وتبعهم في ذلك العرب.[2] وحينها لم يكن بد من وضع آخر لبنات إقامة العمران بإرسال

---

(١) القرضاوي، يوسف. **جيل النصر المنشود**، القاهرة: مكتبة وهبة، ط٣، (١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م)، ص٩.

(٢) يشهد لذلك ما رواه البخاري في صحيحه من حديث عمرو بن سلمة قال: "قال لي أبو قلابة: ألا تلقاه =

السرايا والبعوث إلى من لم يسلم بعد من قبائل العرب.

- إرسال السرايا والبعوث مثل سرية أبي بكر[1] الصديق إلى بني فزارة، وبعث أسامة بن زيد[2] إلى الحرقات من جهينة، .....

= فتسأله. قال: فلقيته فسألته. فقال: كنا بماء ممر الناس، وكان يمر بنا الركبان فنسألهم: ما للناس؟ ما للناس؟ ما هذا الرجل: فيقولون: يزعم أن الله أرسله أوحى إليه، أو أوحى الله بكذا. فكنت أحفظ ذلك الكلام، وكأنما يقر في صدري، وكانت العرب تلوم بإسلامهم الفتح فيقولون: اتركوه وقومه فإنه إن ظهر عليهم فهو نبي صادق. فلما كانت وقعة أهل الفتح بادر كل قوم بإسلامهم..." ومعنى "يقر" من التقرية؛ أي يجمع، و"تلوم"؛ أي تنتظر. انظر:

- البخاري، **الجامع الصحيح**، مرجع سابق، كتاب: المغازي، باب: من شهد الفتح، ج٤، ص١٥٦٤، حديث رقم: (٤٠٥١).

- ابن حجر العسقلاني، **فتح الباري بشرح صحيح البخاري**، مرجع سابق، ج٨، ص٢٣.

(١) أخرج خبر هذه السرية الإمام مسلم، والبخاري في حديث سلمة بن الأكوع، أنه خرج في تسعة بعوث: "مرة علينا أبو بكر ومرة علينا أسامة"، انظر:

- القشيري، **صحيح مسلم**، مرجع سابق، من كتاب: الجهاد والسير، باب: التنفيل وفداء المسلمين بالأسارى، ج٣، ص١٣٧٥، حديث رقم: (١٧٥٥).

- البخاري، **الجامع الصحيح**، مرجع سابق، كتاب: المغازي، باب: بعث النبي ﷺ أسامة بن زيد إلى الحرقات، ج٤، ص١٥٥٥، حديث رقم: (٤٠٢٢).

- ابن سيد الناس، **عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير**، مرجع سابق، ج٢، ص٢٠٠.

(٢) أخرج خبر هذه السرية البخاري ومسلم في صحيحيهما. انظر:

- البخاري، **الجامع الصحيح**، مرجع سابق، كتاب: المغازي، باب: بعث النبي ﷺ أسامة بن زيد إلى الحرقات، ج٤، ص١٥٥٥، حديث رقم: (٤٠٢١- ٤٠٢٢).

- القشيري، **صحيح مسلم**، مرجع سابق، كتاب: الإيمان، باب: تحريم قتل الكافر بعد أن يقول: لا إله إلا الله، ج١، ص٩٦، حديث رقم: (٩٦).

لكن في كتب المغازي والسير ذكر غالب بن عبد الله الليثي على رأس السرية التي قتل فيها أسامة ذلك الرجل، لذلك عدوها من أحداث السنة السابعة، لكن ترجمة البخاري ظاهرها أن أسامة بن زيد هو الذي كان على رأس السرية، فإن صح ما ذهب إليه البخاري يكون ترجمته لهذا الباب متوافقاً مع ما ذهب إليه من جعل هذا الباب بعد غزوة مؤتة؛ لأن أسامة لم يؤمر إلا بعد استشهاد أبيه في غزوة مؤتة. وكلام ابن سيد الناس مشعر بأن صنيع البخاري لا يفيد أن أسامة هو من كان على رأس السرية كما هو ظاهر الترجمة، لذلك عدّ ابن سيد الناس السرية التي قتل فيها أسامة الرجل هي التي كان على رأسها =

وسرايا زيد بن حارثة.[1] وغير ذلك مما ذكره أهل المغازي والسير. وقد أرسل النبي ﷺ بعوثاً وسرايا[2] في بداية هجرته إلى المدينة وبعد أن فتح مكة. وكانت هذه السرايا إما اعتراضية مثل سرية الخبط أو بعث أبي عبيدة بن الجراح إلى سيف البحر، أو تعقبيّة مثل سرية كرز بن جابر الفهري لمطاردة المفسدين من عكل وعرينة. فهذه وما ذكر قبلها سرايا وبعوث قبل فتح مكة، لكن أهم البعوث والسرايا بعد فتح مكة نذكر بعث خالد بن الوليد إلى جذيمة، وسرايا تحطيم الأصنان والأوثان.

في حين افتتحت اللحظة التاريخية الثانية في مرحلة النصر والتمكين بغزوة فتح مكة، واصطلحنا عليها بلحظة استكمال الهجرة من الدولة إلى إقامة العمران الإسلامي الرسالي العالمي، ولذلك وقع في هذه اللحظة انسجام واستثمار لسنن الله في العمران:

- الفتح الأعظم؛ فتح مكة وما حصل فيه من تكسير الأصنام إعلاناً للتوحيد، وتحريراً للإنسان من رق العبودية، وعنواناً للإخراج النهائي للوثنية من شبه الجزيرة العربية، وما وقع فيه أيضاً من خطبة الفتح الأعظم[3] التي فتحت آفاقاً جديدة للعمران

= غالب بن عبد الله الليثي.

- ابن سيد الناس، **عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير**، مرجع سابق، ج٢، ص٢٠١.

(١) البخاري، **الجامع الصحيح**، كتاب: المغازي، باب: غزوة زيد بن حارثة، ج٤، ص١٥٥١، حديث رقم: (٤٠٠٤). وباب: بعث النبي ﷺ أسامة بن زيد إلى الحرقات، ج٤، ص١٥٥٥، حديث رقم: (٤٠٢٢)، من حديث سلمة بن الأكوع.

(٢) لمزيد من التفاصيل. انظر:

- العمري، بريك محمد بريك أبو مايلة. **السرايا والبعوث النبوية حول المدينة ومكة: دراسة نقدية تحليلية**، الرياض: دار ابن الجوزي، ط١، (١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م).

(٣) أخرج البخاري خطبة فتح مكة في مواضع كثيرة، وبأسانيد وطرق متعددة، كما أخرجها مسلم وابن إسحق أيضاً. انظر:

- البخاري، **الجامع الصحيح**، مرجع سابق، كتاب: العلم، باب: ليبلغ العلم الشاهد الغائب، ج١، ص٥١، حديث رقم: (١٠٤). وفي كتاب: البيوع، باب: بيع الميتة والأصنام، ج٢، ص٧٧٩، حديث =

الإسلامي، ومثلت -بحسب رأينا- تمهيداً لخطبة حجة الوداع. وقد جاءت كثير من فقرات خطبة الفتح منسجمة مع ما ارتأيناه من تقسيم لمرحلة النصر والتمكين بلحظتيها التاريخيتين، ولتؤكد ما ذهبنا إليه من اعتبار اللحظة التاريخية الثانية هي لحظة استكمال الهجرة من الدولة إلى إقامة العمران الإسلامي الرسالي العالمي، لذلك جاء التأكيد على ضرورة تخلية الفكر والسلوك من كل نخوة أو عصبية جاهلية،[1] وعودة بالبشرية إلى أصلها الآدمي الموحد بعيداً عن التفاخر والتعظم بالآباء، وهذا استكمال لعملية التأليف القلبي التي خاض تفاصيلها ومشاهدها الرسول ﷺ بتوفيق رباني، فقد كانت غزوة فتح مكة -كما رآها الصادق عرجون- "نسجاً لخيوط وحدة إيمانية أوسع وأعظم من الوحدة الإيمانية التي بدأت بمكة قبل الهجرة في دار الأرقم، ومن الوحدة التكافلية الاجتماعية التي عقدت عراها في المسجد النبوي، ... لأن وحدة الفتح بمكة كانت وحدة انطلاق بالهداية، ونشر الإسلام في أوسع مدى من البلاد والأمم والشعوب."[2]

- غزوة تبوك،[3] وهي آخر غزواته ﷺ، وأعظمها من حيث كثافة حشودها،

= رقم: (٢١٢١). وكتاب: في اللقطة، باب: كيف تعرف لقطة أهل مكة؟ ج٢، ص٨٥٧، حديث رقم: (٢٣٠٢).

- القشيري، **صحيح مسلم**، مرجع سابق،كتاب: الحج، باب: تحريم مكة وصيدها، ج٢، ص٩٨٦، حديث رقم: (١٣٥٣-١٣٥٥).

- ابن هشام، **السيرة النبوية**، مرجع سابق، ج٢، ص٤١١-٤١٢.

(١) قوله ﷺ: "إن الله قد أذهب عنكم عبية الجاهلية، وفخرها بالآباء"رواه الترمذي، وقال: "هذا حديث حسن صحيح." انظر:

- الترمذي، **الجامع الكبير «سنن الترمذي»**، مرجع سابق، كتاب: أبواب المناقب عن رسول الله ﷺ، باب: في فضل الشام واليمن، ج٦، ص٢٢٩، حديث رقم: (٣٩٥٦).

(٢) عرجون، **محمد رسول الله ﷺ: منهج ورسالة، بحث وتحقيق**، مرجع سابق، ج٤، ص٣٥٧.

(٣) كانت غزوة تبوك في شهر رجب سنة تسع، بذلك قال ابن إسحاق، وابن القيم، وابن سيد الناس. قال ابن حجر: "كانت غزوة تبوك في شهر رجب من سنة تسع قبل حجة الوداع بلا خلاف." وتسمى أيضاً غزوة العسرة وسماها القرآن ساعة العسرة، وبوب لها البخاري بترجمة باب: غزوة تبوك، وهي غزوة العسرة، وقد حضر هذه الغزوة أزيد من ثلاثين ألفاً باتفاق، وإنما الخلاف فيما بعد هذا العدد حيث بلغ به =

وأعسرها على النفس، فقد مثلت بلوغ القمة في التجرد لله، والبراءة من الأجر الدنيوي، وكمال التضحية بالغالي والنفيس في سبيل إعلاء كلمة الله، ونشر هداية الإسلام استجابة لأمر الله بإقامة الشهادة على العالمين. ويكفي غزوة تبوك شرفاً أنها كانت إعلاناً عملياً لعموم الرسالة، وقد أعاد النبي ﷺ الكتابة إلى هرقل بعد أن كان قد كتب إليه في مدة هدنة صلح الحديبية، وصالح كثيراً من متنصرة العرب.

- حجة الوداع،[1] وما تخللها من خطب[2] رسول الله ﷺ المنبئة بخصائص

= بعضهم إلى سبعين ألفاً. انظر:

- ابن هشام، **السيرة النبوية**، مرجع سابق، ج٢، ص٥١٥-٥١٦.
- ابن قيم الجوزية، **زاد المعاد في هدي خير العباد**، مرجع سابق، ج٣، ص٤٦٠،
- ابن سيد الناس، **عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير**، مرجع سابق، ج٢، ص٢٩٢.
- ابن حجر العسقلاني، **فتح الباري بشرح صحيح البخاري**، مرجع سابق، ج٨، ص١١.
- البخاري، **الجامع الصحيح**، مرجع سابق، كتاب: المغازي، باب: غزوة تبوك، وهي غزوة العسرة، ج٤، ص١٦٠١.

(١) ذكر ابن إسحق أن خروجه ﷺ للحجة التي حجها، وهي حجة الوداع لخمس ليل بقين من ذي القعدة سنة عشر، وقد صرح فيه بالتحديث، وأخرجه البخاري من حديث ابن عباس، وسلم من حديث جابر بن عبد الله. وغيره. وتسمى حجة الوداع؛ لأنه لما خطب رسول الله ﷺ في الناس يوم الحج الأكبر، وهو يوم النحر -كما في صحيح البخاري- طفق ﷺ يقول: "اللهم اشهد. وودع الناس فقالوا: هذه حجة الوداع." وتسمى أيضاً حجة البلاغ، وحجة الإسلام. انظر:

- ابن هشام، **السيرة النبوية**، مرجع سابق، ج٢، ص٦٠١.
- البخاري، **الجامع الصحيح**، مرجع سابق، كتاب: الحج، باب: ما يلبس المحرم من الثياب والأردية والأزر، ج٢، ص٥٦٠، حديث رقم: (١٤٧٠). وباب: الخطبة أيام منى، ج٢، ص٦٢٠، حديث رقم: (١٦٥٥).
- القشيري، **صحيح مسلم**، مرجع سابق، كتاب: الحج، باب: حجة النبي ﷺ، ج٢، ص٨٨٦، حديث رقم: (١٢١٨).
- ابن سيد الناس، **عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير**، مرجع سابق، ج٢، ص٣٥٩.

(٢) أخرج البخاري ومسلم في صحيحيهما مقاطع من خطب حجة الوداع، وقد جمع فاروق حمادة أطراف هذه الخطب التي مثلت وصايا للأمة من بعده من مصادرها الحديثية ومن كتب أهل المغازي والسير، ونسق فقراتها، ودرس أسانيدها وأحوال رواتها، وقام بتحليل ما جاء فيها، وقد استمد عنوان كتابه من =

اللحظة التاريخية القادمة التي ستعيشها الأمة الإسلامية في تدافعاتها المتوالية، لتثبيت أركان ودعائم العمران البشري وفق سنن الله تعالى. وتشمل خطب حجة الوداع حديثاً عن منظومات سنن التسخير والاستخلاف، وهما أساساً سنن العمران البشري. فقد ضمت هذه الخطب الإعلان الختامي العالمي للرسالة، "أيها الناس: إنه لا نبي بعدي، ولا أمة بعدكم،"[1] ففي كل فقرات الوصية النبوية "الوداعية" نداء متكرر موجه للناس جميعاً وليس للمسلمين فقط، فعالمية الرسالية تقتضي عالمية الخطاب، وعالمية الخطاب تستوجب الانفتاح على الآخر بمختلف أشكال حضوره الثقافي والحضاري، والتفاعل مع منتجاته وإبداعاته، واستيعاب خصوصياته ونماذجه الاجتماعية. وكأن تحقق عالمية الإسلام بلاغاً وتبليغاً وعدلاً وشهادة لا يتم إلا بتحرر العقل المسلم من ذاتيته وحدوده الإقليمية جغرافياً ونفسياً واجتماعياً، للالتقاء مع الآخر وبناء عمران إنساني عالمي، إلا في الحالة التي تكون فيها رغبة الآخر في فرض عالميته ونموذجه الحضاري القائم على إلغاء الآخر واستعباده بنماذج ثقافية جديدة، وهو ما كان يعمل النبي ﷺ على دفعه دفعاً حضارياً تحقيقاً لسنة التداول التي شاءها الله تعالى أن تكون حاكمة للعمران، لذلك بشر الصحابة يوم الأحزاب بفتح فارس والروم واليمن، وهلاك كسرى وقيصر، وأن يدفع الله عَزَّوَجَلَّ

= قول ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهو يذكر خطبة النبي ﷺ يوم النحر: "فوالذي نفسي بيده، إنها لوصيته إلى أمته". انظر:

- البخاري، **الجامع الصحيح**، مرجع سابق، كتاب: العلم، باب: قول النبي ﷺ "رب مبلغ أوعى من سامع"، ج١، ص٢٧، حديث رقم: (٦٧). وباب: ليبلغ العلم الشاهد الغائب، ج١، ص٥٢، حديث رقم (١٠٥). وفي كتاب: الحج، باب: الخطبة أيام منى، ج٢، ص٦٢٠، حديث رقم: (١٦٥٥).

- القشيري، **صحيح مسلم**، مرجع سابق، في كتاب: الحج، باب: حجة النبي ﷺ، ج٢، ص٨٨٦، حديث رقم: (١٢١٨).

- حمادة، فاروق. **الوصية النبوية للأمة الإسلامية في حجة الوداع**، دمشق: دار القلم، ط١، (١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م).

(١) البستي، **صحيح ابن حبان «بترتيب ابن بلبان»**، مرجع سابق، ج١٥، ص١٩٥، حديث رقم: (٦٧٨٨).

إليه مفاتيح الكعبة[1] بوصفها رموزاً حضارية -لا سيّما الحضارة الرومانية- تسعى لفرض هيمنتها العالمية المادية المنحرفة، التي تشكل اليوم الحضارة الغربية وريثها التاريخي الفلسفي والحضاري -ومعها الحضارة اليونانية القديمة-، التي صارت اليوم أعجز من أن تحل مشاكلها، بله أن تقدم نفسها بديلاً حضارياً جديداً.

كما مثلت هذه الوصية النبوية دعوة للمسلم الرسالي للخروج من ضيق الخصوصية الأمية القبلية إلى آفاق العالمية الإسلامية، والظهور الكلي للدين، ولم يكن ليتحقق ذلك إلا بشرط إخراج العربي المسلم من ذهنية الملحمة إلى خطاب المرحمة، والتأكيد على حقوق المواطنة الآدمية المتكافئة. كما قررت وثبتت قواعد ودعائم المنظومة القيمية السننية لتنمية العمران القائمة على سنن التسخير، والاستخلاف، وإخراج الإنسان من ضيق توحش المترفين المرابين إلى سعة إنسانية الإسلام، ومن الجور الناتج عن مخالفة سنن الله في الاجتماع والعمران إلى العدل والرحمة النابعين من موافقة هذه السنن ومجاراتها واستثمارها. من ذلك سنن الأمن النفسي؛ وهي سنة وحدة الخالق، ووحدة الخلق، ووحدة الأصل: "يا أَيها النَاس أَلا إن ربكم واحد، أَلا وإِن أَبَاكُمْ وَاحِدٌ، أَلا لا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى عَجَمِيٍّ، أَلا لا فَضْلَ لأَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ إِلا بِالتَّقْوَى، أَلا قَدْ بَلَّغْتُ؟ "قَالُوا: نَعَمْ. قَالَ: "لِيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الْغَائِب.""[2]

وسنن الأمن الاجتماعي الضامنة للسلم والتعايش والتماسك بين مكونات الجسم الاجتماعي كأنه البنيان المرصوص، فعَنْ رَسُولِ الله ﷺ، أَنَّهُ قَالَ فِي حَجَّة الوداع: "سَأُخْبِرُكُمْ مَنِ المسْلِمُ: مَنْ سَلِمَ الناس مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ، والمؤمن: منْ أَمِنَهُ النَّاس على أَموالِهِمْ وَأَنْفُسِهِم، وَالْمُهَاجِر: مَنْ هَجَرَ الْخَطَايَا وَالذنوب، وَالْمجاهد: من جاهد نفسَه

(١) البيهقي، **دلائل النبوة ومعرفة أحوال الشريعة**، مرجع سابق، ج٣، ص٣٩٨-٤٠٧، من مرسل الزهري وسنده حسن.

(٢) قال الهيثمي: "رواه الطبراني في الكبير بإسناد ضعيف، وتقدم له إسناد صحيح في الخطبة يوم عرفة". انظر:

- الهيثمي، **مجمع الزوائد ومنبع الفوائد**، مرجع سابق، ج٣، ص٣٧٢.

فِي طاعةِ الله"[1] ولا يتحقق الأمن الاجتماعي إلا باستكمال سننية البناء الأسري والرقي بنظرة المسلم إلى المرأة نحو آفاق جديدة تليق برسالة الإسلام العالمية: "فاتقوا الله في النساء فإنكم أخذتموهن بأمان الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله ولكم عليهن أن لا يوطئن في فرشكم أحداً تكرهونه، فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضرباً غير مبرح، ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف..."[2]

وسنن الأمن الاقتصادي وأساسه التبرؤ من الربا، الذي به ملكت رقاب الضعفاء، ومزقت أواصر العلاقات الاجتماعية، فعَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ عَمْرٍو، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ، "يقول فِي حَجَّة الْوَدَاع: أَلا إِنَّ كُلَّ رِباً من ربا الْجَاهِلِيَّةِ موضوعٌ، لَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لا تَظْلِمُونَ وَلا تُظْلَمُونَ، أَلا وَإِنَّ كُلَّ دَمٍ مِنْ دَمِ الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعٌ، وَأَوَّلُ دَمٍ أَضَعُ مِنْهَا دَمُ الْحَارِثِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِب، كَانَ مُسْتَرْضَعاً فِي بَنِي لَيْثٍ فَقَتَلَتْهُ هُذَيْلٌ، اللَّهُمَّ قَدْ بَلَّغْتُ؟ قَالُوا: نَعَم، ثَلاثاً، قَال: اللَّهُمَّ اشْهَد، ثَلاثَ مَرَّاتٍ."[3]

وسنن الأمن السياسي، وأساسه؛ وحدة الصف، والحذر من الاحتراب الداخلي، وفقه الطاعة القائم على الاستجابة لكتاب الله تعالى دون الوقوع في تأويلات تشرع للاستبداد السياسي المفضي إلى خراب العمران، ففي حديث ابن عباس أَن النَّبِيَّ ﷺ قَال في حَجَّة الوداع: "لا تَرْجِعُوا بَعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض"[4] وقال: "إن أُمِّرَ

---

(١) رواه أحمد، وابن حبان، والحاكم، وقال: على شرطهما. وهو صحيح الإسناد. انظر:

- الشيباني، **مسند الإمام أحمد**، مرجع سابق، ج٣٩، ص٣٨٧، حديث رقم: (٢٣٩٦٦).

- البستي، **صحيح ابن حبان «بترتيب ابن بلبان»**، مرجع سابق، ج١١، ص٢٠٣، حديث رقم: (٤٨٦٢).

- النيسابوري، **المستدرك على الصحيحين**، مرجع سابق، ج١، ص١٠-١١.

(٢) القشيري، **صحيح مسلم**، مرجع سابق، كتاب: الحج، باب: حجة النبي ﷺ، ج٢، ص٨٨٦، حديث رقم: (١٢١٨).

(٣) المرجع السابق، الموضع نفسه.

(٤) البخاري، **الجامع الصحيح**، مرجع سابق، كتاب: الحج، باب: الخطبة أيام منى، ج٢، ص٦٢٠، حديث رقم: (١٦٥٥). من حديث ابن عباس، وفي كتاب: الحدود، باب: ظهر المؤمن حمى إلا في حد أو حق، =

عليكم عبد مجدع (حسبتها قالت) أسود، يقودكم بكتاب الله فاسمعوا له وَأَطِيعُوا."[1]

وسنن الأمن الفكري والعلمي عن أبي أمامة قال: لما كان في حجة الوداع قام رسول الله ﷺ وهو يومئذ مردف الفضل بن عباس على جمل آدم، فقال: "يا أيها الناس، خذوا من العلم قبل أن يقبض العلم، وقبل أن يرفع" وقد كان أنزل الله عَزَّوَجَلَّ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسۡـَٔلُواْ عَنۡ أَشۡيَآءَ إِن تُبۡدَ لَكُمۡ تَسُؤۡكُمۡ وَإِن تَسۡـَٔلُواْ عَنۡهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلۡقُرۡءَانُ تُبۡدَ لَكُمۡ عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهَاۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٞ ١٠١ ﴾ [المائدة: ١٠١] قال: وكنا قد كرهنا كثيراً من مسألته، واتقينا ذلك حين أنزل الله عَزَّوَجَلَّ ذلك على نبيه ﷺ قال: فأتينا أعرابياً فرشوناه برداء فاعتم به. قال: حتى رأيت حاشيته خارجة على حاجبه الأيمن. قال: ثم قلنا له: سل النبي ﷺ فقال له: يا نبي الله، كيف يرفع العلم منا وبين أظهرنا المصاحف، وقد تعلمنا ما فيها، وعلمناها نساءنا وذرارينا وخدمنا؟ قال: فرفع النبي ﷺ رأسه وقد علت وجهه حمرة من الغضب. قال: فقال: "أي، ثكلتك أمك، وهذه اليهود والنصارى بين أظهرهم المصاحف لم يصبحوا يتعلقوا منها بحرف مما جاءتهم به أنبياؤهم، ألا وإن ذهاب العلم ذهاب حملته" ثلاث مرات"[2] ولعل التحدي الفكري والعلمي هو من

= ج٦، ص٢٤٩٠، حديث رقم: (٦٤٠٣).

(١) القشيري، **صحيح مسلم**، مرجع سابق، كتاب: الإمارة، باب: وجوب طاعة الأمراء في غير معصية وتحريمها في المعصية، ج٢، ص٩٤٤، حديث رقم: (١٢٩٨).

(٢) رواه أحمد في مسنده بإسناد ضعيف للضعف الشديد لعلي بن يزيد. وقد جاء مختصراً عند الطبراني من طرق في بعضها الحجاج بن أرطاة، وهو صدوق كثير الخطأ والتدليس، لكن يُكتب حديثه، وليس ممن يتعمد الكذب، والله أعلم. ومعناه وأصله في الصحيح، فقد أخرج البخاري عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً، ينتزعه من العباد، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء حتى إذا لم يبق عالماً اتخذ الناس رءوساً جهالاً، فسئلوا، فأفتوا بغير علم، فضلوا وأضلوا." وقد ذكر ابن حجر في شرحه لهذا الحديث أن تحديث النبي بذلك كان في حجة الوداع، ثم ذكر رواية أحمد والطبراني المشار إليها دون أن يحكم عليها. انظر:

- الشيباني، **مسند الإمام أحمد**، مرجع سابق، ج٣٦، ص٦٢١، حديث رقم: (٢٢٢٩٠).

- ابن حجر العسقلاني، **تقريب التهذيب**، مرجع سابق، ص٢٢٢، و٧٠٧.

- الطبراني، أبو القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب. **المعجم الكبير**، تحقيق : حمدي بن عبد المجيد السلفي، =

أخطر التحديات التي تحدق بعمران الأمم، لذلك كان الأمن الفكري والعلمي هو صمام الأمان للعمران البشري الذي يقيه من الوقوع في تبرير الهزائم، أو إضفاء الشرعية على واقع مرير، أو السقوط في التبعية للآخر.

لقد قوم النبي ﷺ منهج رؤية المسلم الرسالي لأزمة ذهاب العلم ورفعه، منبهاً له على خطورة الوقوع في أخطاء صادرة عن عقم منهج تشخيص وضعية العمران، لما تتلبس به حالة ذهاب العلم، فبين عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ -وقد احمر وجهه غضباً للدلالة على الضرر الناشئ من سوء الفهم والتحليل والتفسير لظاهرة عمرانية حضارية سننية هي ذهاب العلم- أن لا تعلق لذهاب العلم بذهاب القرآن، وأن ذهاب العلم لا ينتج عن هجر قراءة القرآن، أو هجر حفظه وتعلمه، وقد أحالهم ﷺ إلى وقائع تاريخية وحضارية معاصرة لهم تتعلق باليهود والنصارى، للنظر والاعتبار تؤكد فساد ما ذهب إليه ذلك الصحابي من تفسير لحالة ذهاب العلم. إن حقيقة ذهاب العلم إنما تكمن في فقدان الأمة لمنهج التعامل مع الوحي، وتخبطها في مناهج غريبة، وما ذلك إلا بسبب ذهاب من يدل على هذا المنهج وهم العلماء، فذهاب العلم ذهاب أهله الحاملين لمنهج فهم الوحي وتدبر نصوصه، واكتشاف ما أشار إليه من سنن، والنفاذ إلى ما ضمته آياته من أسرار وهدايات تقي الأمة من الضياع والهزيمة، وتحمل العقل المسلم على الإبداع والعطاء، وقيادة أمم العالم الأخرى.

"إن أخطر ما في القضية العلمية هي ذهاب أهل العلم، كما قال رسول الله ﷺ، وذهاب هؤلاء طرائق شتى، منها التناقص، وموتهم واحداً إثر آخر دون خلف لهم، ومنها الإعراض أصلاً عن العلم، والتنكر له، ومنها قتل أهله أو سوقهم إلى أقبية

= الموصل: مكتبة العلوم والحكم، ط٢، (١٤٠٤هـ/١٩٨٣م)، ج٥، ص٢٦٤، حديث رقم: (٥٢٩٧).

- البخاري، **الجامع الصحيح**، مرجع سابق، كتاب: العلم، باب: كيف يقبض العلم، ج١، ص٥٠، حديث رقم: (١٠٠).

- ابن حجر العسقلاني، **فتح الباري بشرح صحيح البخاري**، مرجع سابق، ج١، ص١٩٥.

السجون، أو أعواد المشانق، ومنها تحنيطهم ووضعهم زخرفاً وزينة من تمام زينة المجتمع والأمة... فإذا توقف عطاء العلماء، ومشاركتهم، وجف مدادهم، وتحولوا إلى الدنيا، أو صبوا علمهم في اتجاه غير وجه الحق والدار الآخرة، فقد ذهب العلم، وانحرف المجتمع، لأنهم هداته وقادته، وأئمته وأدلته..."[1]

- كما كان بعث أسامة إلى الشام،[2] في جيش فيه أكابر الصحابة، وطعن في إمارته من طعن ممن نعتهم السهيلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ بأهل الريب؛[3] إذ لا يليق بالمهاجرين والأنصار أن يصدر منهم هذا الطعن، وإنما هو في الغالب من كلام المنافقين أو حديثي عهد بالإسلام من مسلمة الفتح (الطلقاء). وقد صرت إلى هذا القول إلا أنه مما يعكر عليه قوله ﷺ "إن تطعنوا في إمارته فقد كنتم تطعنون في إمارة أبيه من قبل. وأيم الله إن كان لخليقاً للإمارة، وإن كان لمن أحب الناس إلي، وإن هذا لمن أحب الناس إلي بعده."[4]

---

(١) حمادة، **الوصية النبوية للأمة الإسلامية في حجة الوداع**، مرجع سابق، ص١٢١-١٢٢.

(٢) بعث أسامة كان آخر ما جهزه رسول الله ﷺ، وقد بدأ ﷺ في تجهيز جيش أسامة قبل مرضه الذي توفي فيه وذلك يوم الاثنين، ثم بدئ برسول الله ﷺ وجعه يوم الأربعاء. انظر:

- ابن هشام، **السيرة النبوية**، مرجع سابق، ج٢، ص٦٥٠.

- ابن سيد الناس، **عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير**، مرجع سابق، ج٢، ص٣٦٩.

- البخاري، **الجامع الصحيح**، كتاب: المغازي، باب: بعث النبي ﷺ أسامة بن زيد رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا في مرضه الذي توفي فيه، ج٤، ص١٦٢٠، حديث رقم: (٤١٩٨-٤٢٠٠). وفي كتاب: الأيمان والنذور، باب: وأيم الله، ج٦، ص٢٤٤٤، حديث رقم: (٦٢٥٢). وفي كتاب: الأحكام، باب: من لم يكترث بطعن من لا يعلم من الأمراء، ج٦، ص٢٦٢٨، حديث رقم: (٦٧٦٤).

- القشيري، **صحيح مسلم**، مرجع سابق، كتاب: فضائل الصحابة، باب: فضائل زيد بن حارثة وأسامة بن زيد رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، ج٤، ص١٨٨٤، حديث رقم: (٢٤٢٦).

(٣) السهيلي، **الروض الأنف في تفسير السيرة النبوية لابن هشام**، مرجع سابق، ج٤، ص٣٨٦.

(٤) رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما، انظر:

- البخاري، **الجامع الصحيح**، مرجع سابق، كتاب: فضائل أصحاب النبي ﷺ، باب: مناقب زيد بن حارثة مولى النبي ﷺ، ج٣، ص١٣٦٥، حديث رقم: (٣٥٢٤). وفي كتاب: المغازي، باب: بعث النبي ﷺ أسامة بن زيد رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا في مرضه الذي توفي فيه، ج٤، ص١٦٢٠، حديث رقم: (٤١٩٨- =

فتكون الإشارة إلى أن الذين طعنوا في إمارة زيد بن حارثة أبي أسامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا لما جعله رسول الله ﷺ على رأس الأمراء الثلاثة في جيش قوامه ثلاثة آلاف ليسوا كذلك ولا يصدق عليهم وصف السهيلي بأنهم من أهل الريب، فوقوع غزوة مؤتة كان قبل فتح مكة بلا خلاف، فلا سبيل إلى تأويل الناس بمسلمة الفتح (الطلقاء)، إلا أنه لا يبعد أن يصير بعضهم إلى الاعتراض على إمارة أسامة من حيث هم حديثو عهد بالإسلام. لكن جعفر بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان ممن لم تستسغ نفسه إمارة زيد عليه، فمن حديث أبي قتادة قال: "بعث رسول الله ﷺ جيش الأمراء وقال عليكم زيد بن حارثة، فإن أصيب زيد فجعفر" فذكر الحديث وفيه "فوثب جعفر فقال: بأبي أنت وأمي يارسول الله، ماكنت أرهب أن تستعمل علي زيداً، قال: امض فإنك لا تدري أي ذلك خير"[1] وجعفر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من السابقين الأولين، فيكون تأويل قول السهيلي"أهل الريب" كل من لم ير زيداً أو أسامة أهلاً للإمارة بحسب نظره المحدود، وعدم رؤيته للأبعاد الرسالية العالمية للخطاب والممارسة النبوية، ولا سبيل إلى تفسيره بمسلمة الفتح[2] كما تقدم،

= ٤٢٠٠). وفي كتاب: الأحكام، باب: من لم يكترث بطعن من لا يعلم في الأمراء حديثاً، ج٦، ص٢٦٢٨، حديث رقم: (٦٧٦٤).

- القشيري، **صحيح مسلم**، مرجع سابق، كتاب: فضائل الصحابة، باب: فضائل زيد بن حارثة وأسامة بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، ج٤، ص١٨٨٤، حديث رقم: (٢٤٢٦).

(١) أخرجه أحمد والنسائي وصححه ابن حبان كما ذكر ذلك ابن حجر لكنه سكت عنه، قال الهيثمي:"رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح غير خالد بن سمير، وهو ثقة." انظر:

- ابن حجر العسقلاني، **فتح الباري بشرح صحيح البخاري**، مرجع سابق، ج٧، ص٥١١.

- الهيثمي، **مجمع الزوائد ومنبع الفوائد**، مرجع سابق، كتاب: المعازي والسير، باب: غزوة مؤتة، حديث رقم: (١٠٢١٦).

(٢) لا يمكن الجزم بأن من تكلم في إمارة أسامة كانوا من مسلمة الفتح، وإن ذكر ابن حجر من جملة من سمي ممن طعن في إمارة أسامة عياش ابن أبي ربيعة المخزومي وذكر أنه كان من مسلمة الفتح، والذي قاله ابن حجر من كون عياش بن أبي ربيعة كان من مسلمة الفتح غير مسلم. فلعله وهم منه رَحِمَهُ اللَّهُ أو سبق قلم، كيف وهو من السابقين الأولين ممن أسلم بمكة كما ذكر ذلك أهل السير والمغازي، وقد كان ممن حبس بمكة في قصة مشهورة، أخرجها ابن إسحاق في سيرته مصرحاً بالتحديث عن نافع عن عبد الله =

ولا بالمنافقين أيضاً حيث لم يرد خبر -حسب علمي- في خروج المنافقين في غزوة مؤتة أو في بعث أسامة بن زيد.

٢- منظومة القيم المضادة للعمران البشري:

لعل من نافلة القول أن القيم جزء من المنظومة الكلية لثقافة المجتمع ومركز ارتكاز مرجعيته وهويته الحضارية، من حيث إنها تمنح الفعل الاجتماعي معنى محدداً من خلال معايير تجسد تلك القيم وتعكسها، بل إن النظر الدقيق في المرجعية الإسلامية وتطبيقاتها النبوية يقضي بأن القيم ليست مجرد جزء داخل منظومة كلية ثقافية، وإنما هي بحد ذاتها منظومة متكاملة من عناصر ومكونات تشكل في مجموعها ومن خلالها نسقيتها وبنيتها الداخلية التعبير الأسمى عن ثقافة المجتمع ودرجة

= بن عمر عن أبيه عمر بن الخطاب، وهذا إسناد حسن، وفي البخاري عن أبي هريرة أن النبي ﷺ كان إذا رفع رأسه من الركعة الآخرة يقول: "اللهم أنج عياش بن أبي ربيعة، اللهم أنج سلمة بن هشام، اللهم أنج الوليد بن الوليد، اللهم أنج المستضعفين من المؤمنين، اللهم اشدد وطأتك على مضر، اللهم اجعلها سنين كسني يوسف." والغريب أن ابن حجر ذكر في شرحه للحديث الذي أخرجه البخاري في كتاب: التفسير من صحيحه، قوله: "وعياش هو بالتحتانية ثم المعجمة وأبوه أبو ربيعة اسمه عمرو بن المغيرة فهو عم الذي قبله أيضاً، وكان من السابقين إلى الإسلام أيضاً وهاجر الهجرتين، ثم خدعه أبو جهل فرجع إلى مكة فحبسه، ثم فر مع رفيقيه" فكيف يكون عياشاً والحال هذه من مسلمة الفتح؟ ولعل الوهم دخل ابن حجر من جهة كون عياش بن أبي ربيعة قدم يوم فتح مكة. انظر:

- ابن حجر العسقلاني، **فتح الباري بشرح صحيح البخاري**، مرجع سابق، ج١٣، ص١٨٠ وج٨، ص٢٢٧.
- السهيلي، **الروض الأنف في تفسير السيرة النبوية لابن هشام**، مرجع سابق، ج١، ص٤٣٤.
- ابن عبد البر، **الدرر في اختصار المغازي والسير**، مرجع سابق، ص١٤.
- ابن سيد الناس، **عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير**، مرجع سابق، ج١، ص١٨٤.
- ابن هشام، **السيرة النبوية**، مرجع سابق، ج١، ص٤٧٤-٤٧٥.
- البخاري، **الجامع الصحيح**، مرجع سابق، كتاب: الاستسقاء، باب: دعاء النبي ﷺ اجعلها عليهم سنين كسني يوسف، ج١، ص٣٤١، حديث رقم: (٩٦١). وكتاب: التفسير، باب: ليس لك من الأمر شيء، ج٤، ص١٦٦١، حديث رقم: (٤٢٨٤).

فعاليته الحضارية ومستوى قدراته وإمكاناته في خوض التدافعات الحضارية، وضمان موقع الريادة في التحولات العالمية الكبرى، لا سيّما ونحن اليوم أمام ثقافات أضاعت قيمها وتسعى لإهدار قيم الآخر، فقد قال عالم الاجتماع الفرنسي جان بودريار (توفي: ٢٠٠٧م): "إن ثقافة أضاعت قيمها، لا يمكنها إلا أن تنتقم من قيم الثقافات الأخرى"[١] ويمكن القول إن:

- القيم هي مدخل التغيير ومنطلقه الأول والأخير من حيث هي توجه جميع بنى المجتمع ومؤسساته، ولذلك لخص النبي ﷺ رسالته الخاتمة في إتمام صالح الأخلاق ومكارمها.[٢]

- مركزية القيم في المرجعية الإسلامية، وفي مشاريع التدافع والإشهاد الحضاري.

- ازدياد تعقيد ظواهر الاجتماع والعمران البشري، وتنامي الحاجة إلى الإحساس العميق بالهوية، والوعي بالانتماء لمنظومة قيمية معيارية كونية.

- أن عبور الطور العالمي وتحقيق الشهود والوراثة الحضارية يقتضي الوعي باستراتيجيات التحول القيمي وآلياته وإدارة عملية التدافع على مستوى الهوية والقيم.

- تؤكد دراسات العلوم الإنسانية والاجتماعية أن لا تحكم اجتماعياً دون قيم، ولا

---

(١) بودريار، جان. "السلطة الجهنمية: مقال عنف العالمي"، ترجمة: بدر الدين عدروكي، **مجلة الفكر العربي المعاصر**، بيروت: مركز الإنماء القومي، العدد (١٣٤ و١٣٥)، ٢٠٠٦م، ص٤٤.

(٢) حديث "إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق" رواه أحمد بإسناد رجاله رجال الصحيح. ورواه الحاكم عن أبي هريرة وقال: على شرط مسلم. وقال ابن عبد البر: الحديث يتصل من طرق صحاح عن أبي هريرة وغيره. وله شواهد. انظر:

- الشيباني، **مسند الإمام أحمد**، مرجع سابق، ج١٤، ص٥١٢، حديث رقم: (٨٩٥١).
- النيسابوري، **المستدرك على الصحيحين**، مرجع سابق، ج٢، ص٦٧٠.
- ابن عبد البر، **التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد**، مرجع سابق، ج٢٤، ص٣٣٣.

تحول أو تغيير أو نهضة دون قيم، فالقيم هي المنطلق والمدخل الرئيس لإحداث أي تحكم أو تحول.

إن النظرة الكلية لموضوع القيم تثبت بأنها تنطوي على:

- بعد معرفي عقدي فلسفي (القيم مبادئ).
- بعد أخلاقي توجيهي (القيم ضوابط وأهداف ومعايير).
- بعد انفعالي عاطفي (القيم تفضيلات واتجاهات).

ولست هنا في معرض التفصيل في دلالات وأبعاد ومستويات القيم، ولكن حسبي أن أشير إلى أن المفكر والفيلسوف المغربي طه عبد الرحمن في سعيه لتحديد دلالة القيم يقول: "هي جملة المقاصد التي يسعى القوم إلى إحقاقها متى كان فيها صلاحهم، عاجلاً أو آجلاً، أو إلى إزهاقها متى كان فيها فسادهم، عاجلاً أو آجلاً. أما المعايير فهي جملة الوسائل التي يتوسل بها القوم في جلب القيم الصالحة ودفع القيم الفاسدة."[1] فقد ميز بين القيم والمعايير ولم يجعلها معنى واحداً. فالقيم مقاصد، والمعايير وسائل، والوسائل تابعة للمقاصد وتأخذ حكمها، فتكون المعايير تابعة للقيم وخاضعة لمرجعيتها غير منفصلة عنها.

ولم تفت طه عبد الرحمن وهو يتحدث عن القيم أن يعرج على تصنيف آخر، لكن هذه المرة بناء على ثنائية الكونية والخصوصية، وهو تصنيف ميز فيه بين "القيم الخاصة، وهي التي يتفرد بها القوم ولا يشاركهم فيها غيرهم، والقيم المخصصة؛ وهي القيم العامة التي يشتركون فيها مع غيرهم، لكن اجتماعها إلى القيم الخاصة في المجال التداولي يجعلها تتشكل بشكلها وتتلون بلونها، فتصير أشبه بالخاصة منها بالعامة."[2]

---

(١) عبد الرحمن، طه. **الحق العربي في الاختلاف الفلسفي**، بيروت والدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، ط١، ٢٠٠٢م، ص٦٨-٦٩.

(٢) المرجع السابق، ص٦٩.

وهذا نظر ثاقب يبتعد عن الرؤية الفلسفية الأحادية والمؤدلجة أو تلك التي تسير خلف وهم كونية القيم، فيرى في القيم جانب الخصوصية والارتباط بالدين وهوية القوم، وجانب الكونية والاشتراك، لكن هذه الأخيرة بما تدل على انفتاح القوم على قيم الآخر، فإنها لا تنفلت من التطويع وإعادة التشكل والبناء وفق القيم الخاصة للقوم، فتأخذ بذلك طابعها، فتصير بهذا المعنى أقرب إلى القيم الخاصة منها إلى العامة.

وإذا كانت القيم حسب فهمنا لها من خلال اشتقاقات المادة اللغوية "ق، و، م" (القيمة، الإقامة، الاستقامة، المقام) فإننا نحدد القيم بوصفها مقامات تفضي إلى إقامة أحوال ومستويات من الاستقامة في الفرد والأسرة والمجتمع والدولة والأمة والعمران.

- النموذج المقترح في تصنيف القيم، وعلاقته بمهددات العمران البشري:

إن التأمل في سورة العلق أسعفنا في صياغة تصنيف جديد لمنظومات القيم. فسورة العلق افتتحت بأمر القراءة رمزاً للمعرفة والعلم، واشترطت أن تكون القراءة أو المعرفة والعلم باسم الله الأكرم الذي خلق؛ أي أن لا تنفصل المعرفة عن القيم التي تحدد غايات وأهداف ومناهج المعرفة ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ۝٥﴾ [العلق: ١-٥].

لكن حينما يحصل ذلك الانفصال أو الانشقاق بين المعرفة والقيم، فإننا نكون أمام ثلاث منظومات من القيم: منظومة قيم الطغيان ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ۝٦﴾ [العلق: ٦]، ومنظومة قيم الاستغناء ﴿أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ ۝٧﴾ [العلق: ٧]، ومنظومة قيم المنفعة المفصولة عن الآخرة ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجۡعَىٰٓ ۝٨﴾ [العلق: ٨]. وفي مقابل هذه المنظومات القيمية الثلاث تقدم سورة العلق ثلاث منظومات قيمية تشكل عمق البناء الاجتماعي في العمران والاجتماع الإسلامي وهي: منظومة قيم الهدى ﴿أَرَءَيۡتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلۡهُدَىٰٓ ۝١١﴾ [العلق: ١١]، ومنظومة قيم التقوى ﴿أَوۡ أَمَرَ بِٱلتَّقۡوَىٰٓ ۝١٢﴾ [العلق: ١٢]، ومنظومة قيم الإحسان ﴿أَلَمۡ يَعۡلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ۝١٤﴾ [العلق: ١٤].

وهكذا تتقابل منظومة قيم الطغيان مع منظومة قيم الهدى، وتتقابل منظومة قيم الاستغناء مع منظومة قيم التقوى، ومنظومة قيم المنفعة المفصولة عن الآخرة مع

منظومة قيم الإحسان. وحينما يتحول المجتمع من منظومات القيم الإيجابية في تجلياتها الوظيفية (الهدى، والتقوى، والإحسان) نحو منظومات القيم السلبية (الطغيان والاستغناء والمنفعية) دون أن ينتهي ﴿كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ ﴿١٥﴾﴾ [العلق: ١٥]، فإنه يتحول إلى أنساق اجتماعية زائفة وهشة، ولا يعدو أن يكون عمرانه سوى عمرانٍ كاذبٍ وميتٍ سرعان ما ينهار حينما تتسلط عليه دودة الأرض فتأكل منسأته؛ أي تلك الأنظمة السياسية والاقتصادية والتعليمية الخاطئة. على أننا نعدّ الدين مصدراً أولياً وتاريخياً للقيم، وأن الرسالات السماوية جاءت لترسي نظاماً من القيم، ولا يمكن فهم القيم بمعزل عن الدين، كما لا يمكن فهم الدين بمعزل عن مصدره. ولما كان القرآن مصدراً لدين الإسلام، كان فهم القيم التي أرساها الدين، وتحولت إلى أشكال اجتماعية فهماً مرتبطاً بالنص القرآني. ولا نزاع في كون القيم من كليات الدين ومقاصده الكبرى التي جاءت الرسالة الخاتمة لإتمام مكارمها.[1] والذي يتأمل السيرة النبوية يجدها تنزيلاً للمنظومات القيمية القرآنية، وتجسيداً لها في الواقع البشري للاجتماع الإسلامي، ويلمس بوضوح وظيفية منظومات القيم الثلاث وحضورها الفعال في التوجيهات النبوية على مستوى حفظ ورعاية الاجتماع الإسلامي.

أ- منظومة قيم الطغيان:

تشكل هذه المنظومة تهديداً لطاقات الأمة، وإضعافا لقدراتها التدبيرية والتنظيمية، وتؤسس لقيم الاستضعاف والتقليد المناقضة لقيم الهدى والحرية والشورى والإبداع، وقد كان تحذير النبي ﷺ من قيم الاستضعاف والتقليد والآبائية والإمعية شديدا، من ذلك قوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: "لا تكونوا إمعة؛ تقولون: إن أحسن الناس أحسنا، وإن ظلموا ظلمنا، ولكن وطنوا أنفسكم: إن أحسن الناس أن تحسنوا،

(١) نشير هنا إلى الجدل الذي يمكن أن تثيره دلالات الأخلاق ودلالات القيم وما بينهما من المشاكلة والمباينة، وهو ما يحتاج إلى نظر دقيق ودراسة متأنية تنظر في الدلالات والارتباطات، وتخلص إلى المجال الدلالي والتداولي لكل منهما وتطبيقات ذلك في ميادين التربية والتعليم والفكر والاجتماع والسياسة والاقتصاد.

وإن أساءوا فلا تظلموا"[1] ولم يكن عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وهو يدبر أمور الدولة ويشيد صرح عمران العالم، أن يستبد برأي، أو يضيق على مجدد مبدع، أو تطغى شخصيته حتى لا يبقى معها أي مجال أو هامش لفعل الصحابة، ولا فرق في ذلك بين الرجال والنساء، أو بين الفتيان والكبار والشيوخ، والشواهد على ذلك مستفيضة.

ب- منظومة قيم الاستغناء:

تؤسس هذه المنظومة لقيم الصراع والتعالي المناقضة لقيم التقوى والعبودية والانتماء، لذلك فهي تشكل تهديداً للحركة الاستخلافية القائمة على عدم الفصل بين قيم الإيمان وقيم المعرفة، بين التخلق والنظر، بين النظر الملكي من حيث هو موصل إلى العلم والنظر الملكوتي من حيث هو موصل إلى الإيمان، حيث يسدد الثاني الأول نحو أغراض نافعة، ويذكره بحدوده التي لا تتجاوز عالم الأشياء والظواهر، ويكتمل الأول بالثاني بسد النقص الحاصل فيه من جهة المعايير المأخوذة من القيم الروحية التي اختص بها النظر الملكوتي التي يحصلها من تدبر مختلف الآيات الهادية إلى الإيمان التي تعمل على توجيه، وضبط تطبيقات قوانين عالم الظواهر التي يكتشفها النظر الملكي. والفصل بينهما دون اعتبار لتكاملهما أفضى إلى إنتاج علم مادي وضعي محدود بحدود الظواهر التي انكب عليها. وهكذا تتكامل الظواهر والآيات من حيث هي موضوع النظر، ويتكامل العلم والإيمان من حيث هما ثمرة النظر، وتتكامل الأسباب والقيم من حيث هما وجهة النظر، وتتكامل الملاحظة والتأمل من حيث هما آليات النظر.[2]

---

(١) رواه الترمذي في جامعه، وإسناده ضعيف وقد صح موقوفا. انظر:

- الترمذي، **الجامع الكبير «سنن الترمذي»**، مرجع سابق، كتاب: البر والصلة، باب:ماجاء في الإحسان والعفو، ج٣، ص٤٣٢، حديث رقم: (٢٠٠٧).

- التبريزي، محمد بن عبد الله الخطيب العمري. **مشكاة المصابيح**، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، بيروت: المكتب الإسلامي، ط٣، ١٩٨٥م، ج٣، ص١٤١٨، حديث رقم: (٥١٢٩).

(٢) انظر مشاركتنا في المنتدى الفكري السادس بجامعة سيدي محمد بن عبد الله:

ت-منظومة قيم المنفعة:

تشكل هذه المنظومة تهديداً للفعالية التسخيرية المتبصرة والراشدة، وإفساداً للتناغم والوفاق الذي تقيمه المنهاجية الإسلامية مع الطبيعة والعالم والكون. وتؤسس لقيم الأنانية والفردانية المناقضة لقيم الإحسان والعمل والارتفاق والعفة. فمنظومة قيم المنفعة قائمة أساساً على قيم التعاون المادي الذي يحصر ذاته داخل دائرة إشباع الحاجات الغريزية دون تكميله وتسديده بقيم العمل التعارفي. فالعمل التعاوني في حاجة إلى العمل التعارفي، حيث يسدد الثاني الأول فيمكّن الإنسان من الارتفاع بسلوكه، وتحصيل الضوابط التي تفصل بين المعروف والمنكر، ويكتمل الأول بالثاني الذي يزوده بالمعايير العليا التي تضبط عملية الوفاء بحاجات ورغبات الفرد والمجتمع، فلا تخرجها عن القيم الخلقية الهادية إلى التخلق التعارفي التي اختص العمل التعارفي دون غيره بالإيصال إليها. والفصل بينهما دون اعتبار لتكاملهما أفضى إلى مطلق التعاون القائم على مجرد تحصيل خدمات.

ولا شك أن للسنن سلطاناً مبيناً وفيها مغانم كثيرة، وأن تركها قد أورث الأمة مغارم مثقلة حيث لم يتشكل لديها الوعي الكامل والرسوخ التام بما يمكن تسميته بسنن التحصين والتحذير، أو سنن الرعاية والحفظ. فحينما أسس عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ عمران الأمة، وبلغ به لحظة النصر والتمكين وفق سنن الله في الاجتماع والعمران البشري، كان ﷺ يعلم أصحابه وأمته من بعده السنن التي بها يحصنون عمرانهم واجتماعهم، ويحذرهم من مجمل المهددات التي تأتي على بنيان العمران البشري من القواعد، فيصير كأن لم يغن بالأمس ولم يكن شيئاً مذكوراً. إن مهددات العمران البشري أو سنن التحصين والرعاية التي يرشدنا إليها التأسي المقاصدي الكلي التكاملي بالنبي ﷺ نوعان: نوع متعلق بالنظر، ونوع متعلق بالعمل. فالنوع الأول المتعلق

- البطيوي، عزيز. "في تكاملية النقد الإيماني والأخلاقي لواقع الكونية عند طه عبد الرحمن: محاولة فهم"، أعمال المنتدى الفكري السادس بجامعة سيدي محمد بن عبد الله حول: دراسات في أعمال الفيلسوف المغربي طه عبد الرحمن، منظمة التجديد الطلابي، ط١، (١٤٣٤هـ/ ٢٠١٣م)، ص٩٥-٩٦.

بالنظر فيخص المهددات العقدية والفكرية والثقافية، والنوع الثاني المتعلق بالعمل فيخص المهددات القيمية والعملية، وكلا النوعين يدخلان ضمن سنن الاستبدال، والاستدراج، والإملاء، والابتلاء، والتداول المحركة لصيرورات الفعل العمراني نحو التدافع والتجديد الذي أراده الله تعالى أن تسير عليه حركتا الإنسان التسخيرية والاستخلافية في خط العبودية والإنسانية والعالمية.

إن انهيار بنيان الاجتماع، وتحول الأمة من عز العمران إلى ذل الخراب، ومن أحوال النصر والتمكين إلى أحوال الهزيمة والاستضعاف محكوم باختلال العلاقة السننية بين نمط التفكير والقيم الموجهة للفكر والسلوك العملي؛ فسنن الاستبدال العمراني كما أشار إلى جزء منها حديث القصعة.[1] إنما تظهر انعكاساتها ونتائجها النهائية في تداعي الأمم والحضارات الأخرى على العمران المهترئ للأمة؛ فتستنزف طاقاته المادية والمعنوية، وتخضعه للتقطيع والتجزئة والاستخراب، ويصير أعجز من أن ينخرط في تدافع عمراني متكافئ. وما ذلك إلا بسبب سيطرة قيم الغثائية الاجتماعية والوهن النفسي والقابلية للاستضعاف والهزيمة "لكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعن الله من صدور أعدائكم المهابة منكم، وليقذفن في قلوبكم الوهن" فتتحكم هذه القيم (التي أساسها منظومة القيم المعاكسة للعمران والاجتماع كما حددتها سورة العلق: منظومة قيم الطغيان، ومنظومة قيم الاستغناء، ومنظومة قيم المنفعية) وتصبح بديلاً عن المنظومة القيمية الأصلية والأصيلة (التي أساسها منظومة القيم البانية والحاضنة للعمران والاجتماع كما حددتها سورة العلق: منظومة قيم الهدى، ومنظومة

(١) قال ﷺ: "يوشك أن تداعى الأمم عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها.قالوا: أو من قلة نحن يومئذ يا رسول الله؟ قال: "لا، بل أنتم كثير، لكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعن الله من صدور أعدائكم المهابة منكم، وليقذفن في قلوبكم الوهن". قيل: وما الوهن يا رسول الله؟ قال: حب الدنيا وكراهية الموت" رواه أبو داود، وصححه الألباني. انظر:

- السجستاني، **سنن أبي دواد**، مرجع سابق، كتاب الملاحم، باب في تداعي الأمم على الإسلام، ج٢، ص٥١٢، حديث رقم: (٤٢٩٧).

- الألباني، **سلسلة الأحاديث الصحيحة**، مرجع سابق، ج٢، ص٦٤٧، حديث رقم: (٩٥٨).

قيم التقوى، ومنظومة قيم الإحسان)، فتختل لدى عقل المسلم ووجدانه المعايير بفعل خضوع تفكيره وشعوره لتحكم وتضخم عالم الأشياء، "حب الدنيا وكراهية الموت" فيفقد القدرة على رؤية الخلل ومعرفة علل هزائمه المتوالية، حتى إنه حينما تتلبس به الهزيمة ويسعى جاهداً إلى استنكارها وعدم الوعي بها أو تبريرها، فإنه ينصرف إلى تفسيرات مادية قائمة على محدودية التحليل الإحصائي العددي "قالوا: أو من قلة نحن يومئذ يا رسول الله؟"

وسنن الإملاء والاستدراج والإهلاك التي لا تتخلف في أخذ أمة من الأمم بما كسبت أيديهم من قيم الطغيان والتمايز الاجتماعي بين الأغنياء وذوي الجاه والحسب، والفقراء المساكين المستضعفين، فيتحول قدر في بسط الرزق وقبضه إلى قاعدة يحتكم إليها في كسب امتيازات اجتماعية. فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يستدرج عمران الأمة ويملي لها حينما تخفت قيم المبدئية المنضبطة بكليات الشرع ومقاصده وتطفو على سطح العلاقات الاجتماعية قيم المصلحة والانتهازية. فعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا "أن قريشاً أهمتهم المرأة المخزومية التي سرقت فقالوا من يكلم رسول الله ﷺ ومن يجترئ عليه إلا أسامة بن زيد حب رسول الله ﷺ فكلم رسول الله ﷺ فقال: أتشفع في حد من حدود الله. ثم قام فخطب، قال: يا أيها الناس، إنما ضل من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق الشريف تركوه، وإذا سرق الضعيف فيهم أقاموا عليه الحد. وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد ﷺ سرقت لقطع محمد يدها."[1]

---

(١) رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما. انظر:

- البخاري، **الجامع الصحيح**، مرجع سابق، كتاب: فضائل أصحاب النبي ﷺ، باب: ذكر أسامة بن زيد، ج٣، ص١٣٦٦، حديث رقم: (٣٥٢٦). وفي كتاب: الحدود، باب: كراهية الشفاعة في الحد إذا رفع إلى السلطان، ج٦، ص٢٤٩١، حديث رقم: (٦٤٠٦). وفي كتاب: الشهادات، باب: شهادة القاذف والسارق والزاني، ج٢، ص٩٣٧، حديث رقم: (٢٥٠٥).

- القشيري، **صحيح مسلم**، مرجع سابق، كتاب: الحدود باب قطع السارق الشريف وغيره، والنهي عن الشفاعة في الحدود، ج٣، ص١٣١١، حديث رقم: (١٦٨٨-١٦٨٩).

قال ابن حجر: "وفي هذا الحديث من الفوائد: منع الشفاعة في الحدود، وقد تقدمت في الترجمة الدلالة على تقييد المنع بما إذا انتهى ذلك إلى أولي الأمر، واختلف العلماء في ذلك... (وفيه من الفائدة أيضاً) منقبة لأسامة، وفيه ما يدل على أن فاطمة عَلَيْهَا السَّلَامُ عند أبيها ﷺ في أعظم المنازل؛... وفيه ترك المحاباة في إقامة الحد على من وجب عليه ولو كان ولداً أو قريباً أو كبير القدر، والتشديد في ذلك والإنكار على من رخص فيه أو تعرض للشفاعة فيمن وجب عليه... وفيه الاعتبار بأحوال من مضى من الأمم، ولا سيما من خالف أمر الشرع."[1] ويروي البخاري في صحيحه من كتاب المغازي هذه الواقعة بسياق أتم يوضح زمن وقوع الحادثة، ورد فعل النبي ﷺ مصحوباً بحالة نفسية دلت عليها ملامح وجهه وتغير لونه، فعن عروة بن الزبير "أن امرأة سرقت في عهد رسول الله ﷺ في غزوة الفتح، ففزع قومها إلى أسامة بن زيد يستشفعونه. قال عروة: فلما كلمه أسامة فيها تلون وجه رسول الله ﷺ، فقال: أتكلمني في حد من حدود الله. قال أسامة: استغفر لي يا رسول الله. فلما كان العشي، قام رسول الله خطيبا، فأثنى على الله بما هو أهله ثم قال: أما بعد، فإنما أهلك الناس قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد. والذي نفس محمد بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها. ثم أمر رسول الله ﷺ بتلك المرأة فقطعت يدها. فحسنت توبتها بعد ذلك وتزوجت. قالت عائشة: فكانت تأتي بعد ذلك فأرفع حاجتها إلى رسول الله ﷺ"[2] وقد تقدم البيان في اعتبار فتح مكة افتتاحاً للحظة التاريخية الثانية في مرحلة النصر والتمكين، التي اصطلحنا

---

(١) ابن حجر العسقلاني، **فتح الباري بشرح صحيح البخاري**، مرجع سابق، ج١٢، ص٩٦.

(٢) رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما. انظر:

- البخاري، **الجامع الصحيح**، مرجع سابق، كتاب: الشهادات، باب: شهادة القاذف والسارق والزاني، ج٢، ص٩٣٧، حديث رقم: (٢٥٠٥).

- القشيري، **صحيح مسلم**، مرجع سابق، كتاب: الحدود، باب: قطع السارق الشريف وغيره، والنهي عن الشفاعة في الحدود، ج٣، ص١٣١١، حديث رقم: (١٦٨٨).

عليها بلحظة استكمال الهجرة من الدولة إلى إقامة العمران الإسلامي الرسالي العالمي.

ولا يستقيم عمران إسلامي عالمي والمجتمع لم يتخلص بعد من قيم الانتماء للقبيلة وتحكيم الأنساب في الاحتكام لحدود الدين وشرائعه. إن لحظة وقوع الأمة تحت تأثير سلطة قيم العصبية والولاءات القبلية والانتماءات الاجتماعية والسياسية -بوصفها مهدداً أساسياً من مهددات العمران البشري- تنذر بتحول مرجعية الدين ومبادئه العليا إلى سلطة بشرية خاضعة لتأويلات وتفسيرات خادمة لمصالح الطبقة الحاكمة أو المسيطرة سياسياً واجتماعياً، ويحصل بسبب ذلك تبرير تصرفات المترفين والوجهاء والقادة السياسيين، وهو ما تجرعته الأمة قروناً من الزمن بعد ذهاب الخلافة الراشدة إلا ما نعرفه من بعض اللحظات التاريخية المشرقة التي لم يكتب لها أن تشيع وتدوم بحكم ما لقوة قيم العصبية والولاءات القبلية من سلطة وحاكمية. فليست أمة الإسلام ببدع من الأمم في التاريخ البشري حتى لا تجري عليها سنن الله تعالى في الإملاء والاستدراج والإهلاك. إن قيم العدل والحق والمساواة، ورفع المظلومية عن المستضعفين والقهر عن المقهورين، واسترجاع كرامة من أهدرت كرامته بغض النظر عن جنسه أو عرقه أو نسبه أو جاهه أو دينه هي التي تحمي العمران من السقوط والانهيار، وتكون للأمة الحصن المنيع ضد العلل والأمراض الحضارية التي أهلكت الأمم الماضية.

ثانياً: دعائم سنن التغير الاجتماعي وشروط إحكام سنن العمران البشري في ضوء الهدي النبوي

التغير طبيعة من طبائع الاجتماع البشري، ولازمة من لوازم العمران الإنساني، وهو من هذه الجهة مفض إلى التدافع الذي أراده الله تعالى أن تجري عليه حركة التاريخ والحضارات. والتغير الاجتماعي مفهوم إشكالي تناولته نظريات[1] ومدارس

(١) مثل النظرية التطورية والوظيفية والبنيوية والماركسية والتفاعلية الرمزية... وقد اختلفت هذه النظريات في تحديدها لأسباب التغير الاجتماعي ومصادره وإدارته، ففي الماركسية مثلاً، يتحقق التغير الاجتماعي بحدوث تحولات كمية وكيفية في البنية التحتية ذات المحتوى الاقتصادي التي تفضي إلى الصراع الطبقي، ليتحقق بعدها نفي النفي؛ أي نفي التغير الاجتماعي لما قبله.

سوسيولوجية عديدة، وبمناهج ومقاربات مختلفة، وشكلت دراسته بوصفه موضوعاً بؤرة اهتمام علم الاجتماع الكلاسيكي[1] والمعاصر، بغية الكشف عن سننه وقوانينه (بحسب لغتهم). وقد تم ربط الحديث عن التغير الاجتماعي في النظريات والمقاربات السوسيولوجية بحالة التحديث والتصنيع التي عرفتها أوروبا في القرن التاسع عشر في تنكب وإعراض صريح عن الإسهام الخلدوني في المقدمة الذي عد بحق التأسيس العلمي لنظريات التغير الاجتماعي، ولم يكن المصدر الأساس لابن خلدون سوى القرآن الكريم الذي قدم هدايات للعالم في فهم التغير الاجتماعي قبل أن تلج أوروبا عصر الثورة الصناعية. ولا يخفى على الدارسين والباحثين ما تعانيه النظريات السوسيولوجية المعاصرة لا سيّما تلك التي تدرس صيرورات التغير الاجتماعي من أزمات منهجية ومعرفية، لقصورها عن إدراك الحقيقة العلمية للتغير الاجتماعي بدون الاهتداء ببصائر الوحي وتطبيقاتها النبوية.

ويحمل التغير[2] معنيين؛ الأول: معنى التحويل؛ أي حصول تحول في صورة الاجتماع غير التي كان عليها من قبل دون حصول تحول في ذاته، والثاني: معنى التبديل؛ أي حصول طفرة نوعية في نمط من أنماط الاجتماع البشري استحق بموجبها أن تتبدل صورته وذاته معاً. التغير إذن، انتقال تحويل أو انتقال تبديل، ونتيجة التحويل والتبديل نسميه تغييرا؛ فالتغير غير التغيير، وهذا الأخير يكون إما تغييراً

---

(١) نذكر هنا على سبيل المثال إسهام أوغست كونت في تمييزه بين المجتمع في وضعية حركيته (التقدم)، والمجتمع في اللحظة السكونية (النظام)، وصياغته لقانون الحالات الثلاث الذي ارتآه مناسباً لفهم التغير الحاصل في بنيات المجتمعات: الحالة الميتافيزيقية واللاهوتية والوضعية، معتبراً الحالة الأخيرة هي الحالة النموذجية التي يمثلها المجتمع الأوروربي حينما أقصى الدين لصالح العلم. وتبدو محدودية منظور كونت الذي عبر عن مركزية العقل الأوروبي دون أن يوسع أفق تفكيره خارج المجال الجغرافي والمعرفي للغرب نحو مجتمعات أخرى وأنساق معرفية لا يمكن أن نسقط قانون كونت عليها. وبعد كونت يمكن الإشارة كذلك إلى علماء اجتماع آخرين أمثال: سبنسر، ودوركايم، وماكس فيبر،...

(٢) استفدت هنا مما أورده الأصفهاني في مفرداته بنوع من الاستثمار والتوظيف. انظر:

- الراغب الأصفهاني، **المفردات في غريب القرآن**، مرجع سابق، مادة (غير)، ص٣٦٨.

بنائياً صاعداً، وهو ما قصدناه في العنوان بالبناء الحضاري، أو تغييراً ناسفاً نازلاً بالاجتماع البشري إلى درك التخلف والانكسار.

ويعرف عالم الاجتماع الكندي جي روشيه Guy Rocher التغير الاجتماعي بقوله "كل تحول يلاحظ في الزمان، تحول يؤثر، تأثيراً لا يكون مؤقتاً أو عابراً، في بنية تنظيم اجتماعي، أو في عمله الوظائفي، لجمع بشري معين، ويعدل مجرى تاريخه."[(١)] في حين عرفه عالم الاجتماع المعاصر أنتوني غدنز (ولد: ١٩٣٨م) Anthony Giddens التغير الاجتماعي بأنه "تحول في البنى الأساسية للجماعة الاجتماعية أو المجتمع."[(٢)] ويمكن الحديث على الأقل عن ثلاثة مستويات[(٣)] في التغير الاجتماعي: مستوى التغير في الاتجاهات والآراء والأفعال، ومستوى التغير المتمثل في الطريقة والأسلوب الذي ينتشر به تجديد معين متمثلاً في فكرة جديدة، أو ممارسة جديدة، ومستوى التغير الذي يقصد به حدوث تحول مجتمعي من نموذج ونمط في الحياة، والتنظيم والتفكير إلى آخر مخالف له ومتغاير معه. ويمكننا إضافة مستوى رابع يتعلق بوقوع تغير شامل وعالمي في البنيات الثقافية والاجتماعية، والمنظومات القيمية، والمرجعيات المعرفية والمنهجية، والأنساق السياسية، والأنظمة الحضارية وهو التغير الذي عرفته البشرية مع الرسالة الخاتمة، وحصل به الظهور الأول الكلي للدين وعالمية الإسلام، وهو التغير الذي سيقود مرة ثانية العالم نحو عالمية إسلامية ثانية أو الظهور الكلي الثاني للدين حينما تستجمع شروط هذا التغير، وتتوافر أسبابه وتنتفي موانعه وتحكم الأمة سننه: معرفة وفقهاً واستشراراً وتفعيلاً.

---

(١) بودون، ريمون وآخرون. **المطول في علم الاجتماع**، ترجمة: وجيه أسعد، دمشق: الهيئة العامة السورية للكتاب، ٢٠٠٧م، ج٢، ص١٢.

(٢) غدنز، **علم الاجتماع**، مرجع سابق، ص٧٤٣.

(٣) أوردنا هذه المستويات الثلاثة بنوع من التصرف من كتاب:

- عودة، محمود. **أساليب الاتصال والتغير الاجتماعي**، القاهرة: دار النهضة العربية، (١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م)، ص١٤٦.

ولا شك أن لكل مستوىٰ من تلك المستويات الأربعة للتغير الاجتماعي سنناً نافذة مطردة لا تتخلف أبداً، وأن الهدي النبوي في إقامة العمران الإسلامي العالمي -وهو ما يفيد المستوىٰ الرابع ويتعلق به- وبناء صرحه وتوجيه مساره مثل النموذج التاريخي في إرشاد العالم إلىٰ سنن هذا التغير الاجتماعي، وضبط آلياته، وشروطه والتحكم في مساراته واتجاهاته. ولا نريد هنا إعادة ما تمت الإشارة إليه سلفاً من سنن التدرج والتدافع والاستبدال والتداول والاستدراج و... وإنما المقصود هنا الحديث عن دعامات التغير الاجتماعي وآليات اشتغالها والشروط التي تقوم عليها، ولا غرو أن تتسم الدعامة بالكلية و والعموم والاطراد شأنها شأن السنن، وتستقرأ من خلال أحداث ووقائع متعددة. وإذا كنا قد أشرنا سابقاً إلىٰ أن التغيير هو نتاج للتغير، فإننا نرىٰ أن ذلك التغيير الذي حققته الممارسة النبوية خلال ما يقرب من ربع قرن (تقريباً ٢٣ سنة) تم من خلال أربعة مستويات: مستوىٰ صناعة التغيير وإنتاجه، مستوىٰ إدارة التغيير وتدبيره، مستوىٰ ضبط مسارات التغيير وتوجيهه، ومستوىٰ حماية مكتسبات التغيير واستشراف آفاقه. واستقصاء غالب دعامات سنن التغير الاجتماعي والبناء الحضاري في ضوء الهدي النبوي، يتطلب بحثاً مستقلاً لأهميته واتساع قضاياه وتنوع مسائله، وحسبي هنا أن أذكر دعامة واحدة في كل مستوىٰ من المستويات الأربعة المذكورة، وأبرز في كل دعامة المقصود بها، والشواهد والوقائع الدالة عليها من السيرة النبوية، مع ذكر أهم الخلاصات التي ينبغي لجيل النهضة اليوم أخذها بعين الاعتبار وهو يخوض معتركات التدافع، والتداول، والابتلاء، والتجديد.

- الدعامة الأولىٰ: العصب الاجتماعية وصناعة القادة: صناعة التغيير.
- الدعامة الثانية: الكتلة الحرجة والاحتياطي الاستراتيجي: إدارة التغيير.
- الدعامة الثالثة: الفرص المتاحة والتهديدات الممكنة: ضبط مسارات التغيير.
- الدعامة الرابعة: الجاهزية والبدائل: حماية مكتسبات التغيير واستشراف آفاقه.

وتفصيل الحديث عنها فيما يأتي:

١ - دعامة العصب الاجتماعية وصناعة القادة (صناعة التغيير):

لا شك أن حركة التغير الاجتماعي التي كان يقودها الرسول عليه والصلاة والسلام كانت متعلقة بطبيعة المرحلة التاريخية التي تمر منها الرسالة الخاتمة والأدوار والوظائف المنوطة بها من لدن الوحي. وما يحدد طبيعة المرحلة هو المكتسبات المحققة، ورهانات الواقع الاجتماعي، والتحولات الحاصلة فيه، ودرجة تحرك الأطراف الأخرى المعادية، والمساحة الميدانية التي تشغلها في التأطير والتأثير. ولكن لا يمكن الحديث عن حركة تغير اجتماعي في ضوء الهدي النبوي في غياب قاعدة اجتماعية تحمل مشروع التغير والتغيير وتؤسس للنموذج العمراني الإسلامي العالمي؛ نصطلح على هذه القاعدة بمصطلح العصبة الاجتماعية[١] من حيث هي جماعة متناغمة الأهداف، متماسكة العلاقات، يحكمها نظام ووحدة وجدانية وتصورية تشكل مشتركاً عقدياً وفكرياً وقيمياً، ويتحمل مسؤولية توجيهها قائد بمواصفات وشروط معينة، كما توحدها رؤية وبرنامج عمل لإنجاز مشروع مستقبلي. ولعل من سنن التغير الاجتماعي إحداث نقلة نوعية على مستوى التنظيم الاجتماعي من خلال إعادة إنتاج أدوار جديدة وتنظيمها وتوزيعها تواكب تحولات المرحلة وأولوياتها الجديدة، وتناط هذه الأدوار بعصب اجتماعية تكون مؤهلة نفسياً وفكرياً وتنظيمياً.

إن المتأمل في السيرة النبوية، ووفقاً للمراحل التي مر منها إقامة العمران البشري الرسالي وفق الهدي النبوي، يدرك أن صناعة التغيير الاجتماعي قد تحقق بفعل الجهد الرسالي المنظم لثلاث عصب اجتماعية، ارتبطت كل عصبة اجتماعية بعمر تاريخي

---

(١) اخترنا مصطلح "العصبة الاجتماعية" بدل مصطلح "الطبقة"، لما يحمله هذا الأخير من دلالات إيديولوجية ذات حمولة مادية صراعية، ولكونه جاء معبراً عن تغير اجتماعي حصل في الواقع الأوروبي بعد نجاح الثورة الفرنسية أدى إلى نشوء طبقات اجتماعية يحكمها مستوى الانتماء الاقتصادي المادي، ولقصوره أيضاً -وهذا هو الأساسي- عن تمثيل الواقع الاجتماعي الإسلامي في مرحلة النبوة، بل وحتى في مراحله التاريخية الأخرى. كما أننا لم نوظف مصطلح النخبة أو الصفوة رغم شيوعه بين الباحثين في مجال التغير الاجتماعي والسياسي، وذلك لانصرافه إلى معنى فئوي محدود.

مقدر، حينما تستنفده تكون العصبة الاجتماعية التالية مؤهلة لقيادة صناعة التغيير وفق نمط التحولات الجديدة، وإلا تحولت تلك العصبة الاجتماعية الأولى إلى معرقل لإتمام مشروع التغيير، وعائق اجتماعي يكبل طاقات المجتمع ويحكم عليها بالجمود والارتهان للماضي. إن هذه العصب الاجتماعية الثلاث التي صنعت التغيير بقيادة الرسول ﷺ هي: عصبة البدء والتأسيس، وعصبة التغيير والإصلاح، وعصبة البناء والتمكين. وإذا كان لكل عصبة اجتماعية أجل تبلغه، وعمر تاريخياً لا تتجاوزه، فإن عصبة البدء استغرقت من بدء نزول الوحي بمكة إلى خروج النبي ﷺ إلى القبائل باحثاً عن النصرة والمنعة، أما عصبة التغيير فقد تشكلت لحظة بيعة العقبة الأولى والثانية، فالتحق الأنصار مع المهاجرين، لتشكيل عصبة جديدة تنخرط في مشروع التغيير والإصلاح، لتتشكل العصبة الاجتماعية الثالثة -عصبة البناء والتمكين- إبان انهزام الأحزاب وصلح الحديبية. وتصنيفنا لهذه العصب التي يمثلها مجتمع الصحابة -رضوان الله عليهم- هو تصنيف حكمته معايير تنظيمية وتخطيطية، وطبيعة التحول في الممارسة النبوية داخل المجتمع المكي أو المدني، ولا تعلق لهذا التصنيف بأعيان البشر، حيث تكون عناصر عصبة البدء والتأسيس مكوناً أساسياً من مكونات عصبة التغيير والإصلاح، وتكون عناصر عصبة البناء والتمكين متضمنة لعناصر العصبتين الأولى والثانية مع ما التحق بالتنظيم الاجتماعي الإسلامي بالمدينة من عناصر جديدة اعتنقت الإسلام بعد صلح الحديبية مثل: عمرو بن العاص، وخالد بن الوليد، وغيرهما. فتصنيف الصحابة وفق دعامة العصب الاجتماعية الحاملة لمشروع التغيير، والصانعة له بهدف إقامة العمران البشري هو تصنيف ارتبط بالأساس بتغير في أنماط التفكير والعمل، وأشكال العلاقات الاجتماعية والبنيات الثقافية والاقتصادية؛ فصحابة مكة من الرعيل الأول ليسوا هم بالتأكيد صحابة المدينة، والسابقون من المهاجرين والأنصار ليسوا في الفضل والأجر مثل الذين جاؤوا من بعدهم، والذي آمنوا وجاهدوا قبل الفتح ليسوا كمثل الذين أسلموا بعد فتح مكة، وكلاً وعد الله الحسنى.

ونقترح هذا التصنيف السداسي لمجتمع الصحابة زمن النبوة:

أ- القسم الأول: الذين آمنوا بالله تعالىٰ وصدقوا برسوله ﷺ، واتبعوه ولازموه بمكة أول الأمر إلىٰ أن أمر رسول الله ﷺ بعضاً منهم بالهجرة إلىٰ الحبشة.

ب- القسم الثاني: الذين أمرهم النبي ﷺ بالهجرة إلىٰ الحبشة لتأمين الاحتياطي البشري للعمران والاجتماع الإنساني المسلم. وقد امتلكت هذه الفئة أو العصبة المهاجرة مهارات التواصل والتفاوض والحوار مع الآخر المخالف، والقدرة علىٰ الصمود وتحصين الذات أمام الثقافات والحضارات الأخرىٰ، وهو مايشكل ضرورة عمرانية في التمكين لعالمية وخاتمية الرسالة من خلال بعث الرسل إلىٰ الملوك والأمراء. ويشمل أيضاً هذا القسم أولئك الذين أسلموا بمكة، ممن ليسوا من أهلها وأمرهم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بالعودة إلىٰ ديارهم وقبائلهم ونشر الدعوة فيهم وتهييئهم، ليكونوا عناصر دعم وإسناد حينما يظهر الله تعالىٰ هذا الأمر، كما حصل مع أبي ذر الغفاري، وعمرو بن عبسة، وأبي موسىٰ الأشعري...

ت- القسم الثالث: وهم الأنصار الذين بايعوا البيعتين الأولىٰ والثانية وأسلموا قبل أن يهاجر إليهم رسول الله ﷺ، وهم الذين قبلوا أن يمنحوه النصرة والمنعة مع الإيمان والاتباع، وكانوا بحق أصحاب فضل وتضحية، فحازوا قصب السبق في إعلاء كلمة الله والتمكين للدين، حتىٰ إن رسول الله ﷺ أخبرهم بأنه "لولا الهجرةُ لكنت امْرَءا من الأنصار، ولو سلك الناس وادياً وشِعباً لسلكت وَاديَ الأنصَارِ وشِعْبَها، الأنصار شِعار، والناس دِثار، إنكم سَتَلْقَونَ بعدي أَثَرة فاصبروا حتىٰ تلقوني علىٰ الحوض"[1] وعن هشام بن زيد، قال: سمعت أَنس بن مالك، يقول: "مر أَبو بكر، والعباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا بمجلس من مجالس الأَنصار وهم يبكون، فقال: ما يبكيكم، قالوا:

(١) البخاري، **الجامع الصحيح**، مرجع سابق، كتاب: المغازي، باب: غزوة الطائف في شوال سنة ثمان، ج٤، ص١٥٧٤، حديث رقم: (٤٠٧٥)، وفي كتاب: التمني، باب: ما يجوز من اللو، ج٦، ص٢٦٤٦، حديث رقم: (٦٨١٧-٦٨١٨).

ذكرنا مجلس النبي ﷺ منا، فدخل على النبي ﷺ فأَخبره بذلك، قال: فخرج النبي ﷺ وقد عصب على رأسه حاشية بُرد، قال: فصعد المنبر ولم يصعده بعد ذلك اليوم فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: "أوصيكم بالأَنصار فإنهم كَرِشِي وَعَيْبَتِي[1] وقد قضوا الذي عليهم وبقي الذي لهم، فاقبلوا من محسنهم وتجاوزوا عَنْ مُسِيئِهِم."[2]

ث- القسم الرابع: ويشمل الذين أسلموا بعد تأسيس المجتمع الإسلامي بالمدينة وتثبيت دعائمه وأركانه، والشروع في عملية إحصاء المسلمين والمقاتلة منهم، وانطلاق عملية التدافع الجهادي بين المسلمين والمشركين. وأشهر من يمثل هذا القسم عبد الله بن سلام.

ج- القسم الخامس: الذين أسلموا بعد صلح الحديبية ممن سيشكلون إضافة نوعية في مرحلة جديدة من مراحل العمران البشري الإسلامي، وهي مرحلة التمكين والشهود العالمي. من هؤلاء نذكر خالد بن الوليد، وعمرو بن العاص.

ح- القسم السادس: ويشمل الذين أسلموا بعد الفتح، أو كانوا يكتمون إسلامهم بمكة، ويندرج ضمن هذا القسم من حضر حجة الوداع وكل من فاز بشرف صحبة رسول الله ﷺ قبل موته، وهذا القسم يعد فيه الأصحاب بالآلاف نذكر منهم: سهيل

---

(١) قال ابن الأثير في النهاية: أراد أنهم بطانته وموضع سره وأمانته والذين يعتمد عليهم في أموره واستعار الكرش والعيبة لذلك؛ لأن المجتر يجمع علفه في كرشه والرجل يضع ثيابه في عيبته، وقيل أراد بالكرش الجماعة أي جماعتي وصحابتي يقال عليه كرش من الناس أي جماعة" وقال ابن حجر: "أي بطانَتِي وخاصَّتي ... وَالْعَيْبَة بِفتح الْمُهْمَلَة وَسُكُون الْمُثَنَّاة بَعْدهَا مُوَحَّدَة مَا يُحْرِز فِيهِ الرَّجُل نَفِيس مَا عِنْده، يُرِيد أَنَّهُمْ مَوْضِع سِرّه وَأَمَانَته." انظر:

- ابن الأثير. **النهاية في غريب الحديث والأثر**، مرجع سابق، ج٤، ص١٦٣-١٦٤.

- ابن حجر العسقلاني، **فتح الباري بشرح صحيح البخاري**، مرجع سابق، ج٧، ص١٢١.

(٢) رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما. انظر:

- البخاري، **الجامع الصحيح**، مرجع سابق، كتاب: مناقب الأنصار، باب: قول النبي ﷺ "اقبلوا من محسنهم وتجاوزوا عَنْ مُسِيئِهِم"، ج٣، ص١٣٨٣، حديث رقم: (٣٥٨٨-٣٥٩٠).

- القشيري، **صحيح مسلم**، مرجع سابق، كتاب: فضائل الصحابة، باب: من فضائل الأنصار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، ج٤، ص١٩٤٩، حديث رقم: (٢٥١٠).

بن عمرو، وعكرمة بن أبي جهل، وأبا سفيان بن الحارث، ومعاوية بن أبي سفيان.

ووفق هذا التصنيف السداسي للصحابة، فإن القسم الأول والثاني يمثل عصبة البدء والتأسيس التي تحملت أعباء التأسيس، ومحصتها صنوف الفتن والمحن، وحازت شرف الصحبة الطويلة لرسول الله ﷺ وتلقي الوحي منه. وقد تمثل دور النبي ﷺ في قيادته لعصبة البدء والتأسيس في إعدادها إيمانياً وتربوياً وفكرياً، والحرص على وحدتها المنهجية وهو يضع لأعضائها معالم المنهج الرسالي، مع توفير جميع الشروط الذاتية والموضوعية لحمايتهم وتأمينهم، وستستنفد هذه العصبة أغراضها والأدوار التي أنيطت بها بعد مضي أزيد من عشر سنين بمكة، ليبدأ بعدها الرسول ﷺ بحسب طبيعة المرحلة وإكراهات تحولات الواقع القرشي المكي التفكير في عصبة جديدة تتناسب مع المعطيات المحلية والإقليمية. نذكر هنا تلك الرواية التي خلدت تلك "الحركة النبوية" خارج مكة، وهي تستشرف مستقبل العمران الشهودي العالمي وترنو نحو تحقيق الظهور الأولي الكلي للدين من خلال التحول من عصبة البدء والتأسيس التي تكاد تكون قد استنفدت أغراضها نحو عصبة جديدة هي عصبة التغييروالإصلاح. "فعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: حَدَّثَنِي عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ، قَالَ: لَمَّا أُمِرَ رَسُولُ الله ﷺ أَنْ يَعْرِضَ نَفْسَهُ عَلَى قَبَائِلِ الْعَرَبِ خَرَجَ وَأَنَا مَعَهُ، وَأَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ،... قَالَ عَلِيٌّ: ثُمَّ دَفَعْنَا إِلَى مَجْلِسٍ آخَرَ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ وَالْوَقَارُ، فَتَقَدَّمَ أَبُو بَكْرٍ وَكَانَ مُقَدَّماً فِي كُلِّ خَيْرٍ فَسَلَّمَ، وَقَالَ: مِمَّنِ الْقَوْمُ؟ فَقَالُوا: مِنْ شَيْبَانَ بْنِ ثَعْلَبَةَ، فَالْتَفَتَ أَبُو بَكْرٍ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ، فَقَالَ: بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي يَا رَسُولَ الله، مَا وَرَاءَ هَذَا الْقَوْمِ غِرٌّ، هَؤُلاءِ غُرَرَ قَوْمُهُمْ، وَفِيهِمْ مَفْرُوقُ بْنُ عَمْرٍو، وَهَانِئُ بْنُ قَبِيصَةَ، وَالْمُثَنَّى بْنُ حَارِثَةَ، وَالنُّعْمَانُ بْنُ شَرِيكٍ، وَكَانَ مَفْرُوقُ بْنُ عَمْرٍو قَدْ غَلَبَهُمْ جَمَالا وَلِسَاناً... قَالَ مَفْرُوقٌ: قَدْ بَلَغَنَا أَنَّهُ يَذْكُرُ ذَلِكَ، قَالَ: فَإِلامَ تَدْعُو يَا أَخَا قُرَيْشٍ، قَالَ:" أَدْعُوكُمْ إِلَى شَهَادَةِ أَنْ لا إِلَهَ إِلا الله وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ وَأَنِّي رَسُولُ الله، وَأَنْ تُؤْوُونِي وَتَنْصُرُونِي، فَإِنَّ قُرَيْشاً قَدْ تَظَاهَرَت عَلَى أَمْرِ الله فَكَذَّبَتْ رُسُلَهُ، وَاسْتَغْنَتْ بِالْبَاطِلِ عَنِ الْحَقِّ، وَالله هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ..."[1]

(١) تقدم تخريجه صفحة (٤٩٢) من هذا الكتاب.

والواضح من الحديث أن أبا بكر أرشد الرسول ﷺ بما يملكه من معرفة وخبرة بأنساب العرب إلى أنه الآن بين يدي عصبة التغيير المحتملة التي خرج الرسول ﷺ باحثاً عنها. فلم يكن الرسول ﷺ ليتنكب سنن التحولات الاجتماعية، بل كان يميز بين عصبة البدء والتأسيس وعصبة التغيير والإصلاح، وكانت هذه العصبة هي عصبة التغيير والإصلاح. وقد شكلت عناصر العصبة الأولى من المهاجرين الأولين القاعدة الأساس وحجر الزاوية لعصبة التغيير والإصلاح مع ما انضاف إليها من جماعة الأنصار الذين جسدوا منذ أول يوم لقيهم فيه رسول الله ﷺ مقومات وشروط التحول من التأسيس إلى الإصلاح والتغيير. وإذا كانت عصبة البدء والتأسيس هي التي حملت مبادئ الرسالة وقيمها، فإن عصبة التغيير والإصلاح هي التي تحول هذه المبادئ والقيم إلى معطيات ميدانية وحقائق واقعية، تسندها أجهزة تنظيمية وإدارية وتدعمها قوة اقتصادية وسياسية وعسكرية، وهو ما تجلى في تأسيس الدولة بالمدينة وتنظيم جيش إسلامي وبناء سوق للمسلمين.

كما أن هذه العصبة تحرر الجسم الاجتماعي المسلم من البقاء تحت انعكاسات وتأثيرات نفسية الاستضعاف والدفاع عن الذات أمام مواجهات الآخر العنيفة. وقد خاضت هذه العصبة لحظات حاسمة في تاريخ الرسالة الخاتمة، وسجلت صفحات مشرقة في الإيمان العميق، والفهم الدقيق، والأخوة الصادقة، والبذل والجهاد في سبيل الله، حتى إذا شاء الله تعالى أن تستكمل هذه العصبة دورها الرسالي بعد أن صهرتها أحداث غزوة الأحزاب، هيأ الله لها صلح الحديبية -الفتح الأول الذي سبق فتح مكة- للدخول في هدنة مع قريش ويتيح الله تعالى لرسالته وعمرانه أن يتمكنا في الأرض، فكان من قدر الله أن تظهر عصبة ثالثة تستوعب عمل العصبتين الأولى والثانية، وتجدده فتجعله أكثر انفتاحاً على آفاق رسالية عمرانية جديدة فكانت عصبة البناء والتمكين، وهي التي سيمثلها -بالإضافة إلى عناصر العصبة الأولى والثانية- القسم الخامس وجزء من القسم السادس، ذلك لأن مسلمة الفتح لم يكونوا سواء في الإيمان والفهم والسلوك، بل كان كثير منهم حجرة عثرة أمام إتمام المشروع العمراني

للرسالة الخاتمة بسبب عدم تلقيهم عن النبي ﷺ، أو أنهم ما يزالون تحت تأثير جاهليتهم الأولى بما تحمله من عصبية وولاءات قبلية. ولذلك وإن كانت هذه المرحلة ستعرف دخولاً في دين الله أفواجاً، فإن العشرات من هذه الأفواج هي التي سيكون لها التأثير الإيجابي والحقيقي في تاريخ مابعد وفاة الرسول ﷺ، وهو ما يعني أن الذي يقود حركة التغير الاجتماعي نحو العمران هي نخب بعينها تحمل صفات وخصائص عقدية وفكرية وقيمية واجتماعية واقتصادية، تكون قادرة على خوض معتركات الابتلاء والتداول والتدافع والتجديد.

إن دعامة العصب الاجتماعية ودورها التجديدي في بناء العمران البشري في ضوء الهدي النبوي قامت على أساس سنتي الأجل والتدافع، ذلك أن العصبة الاجتماعية تتأسس وتنمو، ثم تبلغ درجة النضج والعطاء في تدافعات يومية مع معطيات الواقع ومستجداته، ثم تصل درجة استنفاد الغرض بعد استفراغ الجهد. وفهم هذه الدعامة وما تحكمها من سنن إلهية يقي التنظيمات، ومشاريع التغيير والإصلاح، والتجديد ذات الرؤية الإسلامية من السقوط في فخ شيخوخة التنظيمات وترهلها، حيث تفقد العصبة اتجاهها، وتضيع منها رؤيتها بحكم شيخوختها وعدم تجديدها فتصاب بالترهل والاختلال الوظيفي، وتعجز عن حسن توظيف واستثمار الموارد والطاقات البشرية، وتتضخم لديها الجوانب الإدارية والتنظيمية، فتستبد قياداتها وتتأبى على قبول النقد والتجديد، وتعدّه تمرداً وانسلاخاً وانحرافاً عن المبادئ والقيم، ويدخل المشروع الإصلاحي التجديدي في دوامة صراع جيلين: جيل التأسيس، وجيل التغيير والإصلاح، والتجديد فتخسر الأمة تراكم الخبرات والتجارب، وتضيع في طاقاتها الشابة المبدعة. والشواهد من السيرة النبوية على هذا الأمر مستفيضة، نذكر من ذلك استشارته ﷺ مع أسامة بن زيد في أمر حادثة الإفك، ولم يكن قد جاوز الخامسة عشر من عمره.

فقد أخرج البخاري وغيره من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: "... قالت (أي عائشة) ودعا رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب وأسامة بن زيد حين استلبث الوحي يسألهما ويستشيرهما في فراق أهله، قالت: فأما أسامة فأشار على رسول الله ﷺ بالذي يعلم

من براءة أهله وبالذي يعلم لهم في نفسه، فقال أسامة: أهلك ولا نعلم إلا خيراً..."[1] ولعل مكانة أسامة عند رسول الله ﷺ هي التي أهلته كي يكون أهلاً للاستشارة، فقد كان طويل الملازمة لرسول الله ﷺ، فاكتسب بذلك صفات وسمات أمكنته أن يكون قادراً على تقديم المشورة في حادثة حرجة في سيرة رسول الله ﷺ. قال ابن حجر: "وأما أسامة فهو كعلي في طول الملازمة ومزيد الاختصاص والمحبة، ولذلك كانوا يطلقون عليه أنه حب رسول الله ﷺ، وخصه دون أبيه وأمه، لكونه كان شاباً كعلي، وإن كان علي أسن منه، وذلك أن للشاب من صفاء الذهن ما ليس لغيره؛ ولأنه أكثر جرأة على الجواب بما يظهر له من المسن؛ لأن المسن غالباً يحسب العاقبة فربما أخفى بعض ما يظهر له رعاية للقائل تارة والمسؤول عنه تارة أخرى، مع ما ورد في بعض الأخبار أنه استشار غيرهما"[2] وأسامة وعلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا كانا من شباب الأمة لما وقعت حادثة الإفك، وهما ينتميان إلى عصبة التغيير والإصلاح التي أرادها الرسول ﷺ أن تقود حركة إرساء قواعد الاجتماع الإسلامي. وكلام ابن حجر مشعر بامتلاكهما وضوح الرؤية -بموجب طول صحبتهما وملازمتهما لرسول الله ﷺ- وصفاء الذهن، وقوة الفكر، والجرأة على قول الحق.

وقد تدرج أسامة بن زيد في اكتساب المهارات والخبرات حتى جعله رسول الله ﷺ على رأس بعث الشام الذي أنفذه أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بعد وفاته عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، كما أصبح علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رابع الخلفاء الراشدين.

---

(١) رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما. انظر:

- البخاري، **الجامع الصحيح**، مرجع سابق، كتاب: المغازي، باب: حديث الإفك، ج٤، ص١٥١٧، حديث رقم: (٣٩١٠). وفي كتاب: التفسير، باب: ولولا إذ سمعتموه قلتم...، ج٤، ص١٧٨٠، حديث رقم: (٤٤٧٩). وفي كتاب: الشهادات، باب: إذا عدل رجل رجلاً، ج٢، ص٩٣٢، حديث رقم: (٢٤٩٤). وباب: تعديل النساء، ج٢، ص٩٤٢، حديث رقم: (٢٥١٨).

- القشيري، **صحيح مسلم**، مرجع سابق، كتاب: التوبة، باب: في حديث الإفك وقبول توبة القاذف، ج٤، ص٢١٢٩، حديث رقم: (٢٧٧٠).

(٢) ابن حجر العسقلاني، **فتح الباري بشرح صحيح البخاري**، مرجع سابق، ج٨، ص٤٦٩.

وإذا كانت هذه الدعامة من حيث طبيعتها تقوم على سنتي الأجل والتدافع، فإنها تقوم أيضاً من حيث وظيفتها على سنة التجديد التي تقضي باستمرارية المشروع الرسالي التغييري وضمان شروط بقائه، بل وامتداده وتقدمه نحو التمكين لأهدافه ومقاصده. وقد وظف النبي ﷺ وهو يقود في كل مرحلة جديدة عصبة من العصب الاجتماعية آليات الانتشار الأفقي والعمودي. ومن يستقرئ أنساب الصحابة وانتماءاتهم القبلية، سواء بمكة أم بالمدينة، يلحظ ذلك التنوع والامتداد القبلي الذي تمتعت به الدعوة الإسلامية، ومدى اتساع (الانتشار الأفقي) وعمق (الانتشار العمودي) تمثيلية المشروع العمراني الرسالي[1] في بطون العرب وقبائلهم. وهو مايعني تدويل مشروع الرسالة، وعدم انحصاره داخل نخبة محددة، أو انتماء قبلي أو جغرافي ضيق. "لقد انتشر الإسلام في المرحلة المكية في سائر فروع قريش بصورة متوازنة، دون أن يكون لإحدى عشائرها ثقل كبير في الدعوة الجديدة، وهذه الظاهرة مخالفة لطبيعة الحياة القبلية آنذاك. وهي إذا أفقدت الإسلام الاستفادة الكاملة من التكوين القبلي والعصبية لحماية الدعوة الجديدة ونشرها، فإنها في الوقت نفسه لم تؤلب عليها العشائر الأخرى بحجة أن الدعوة تحقق مصالح العشيرة التي انتمت إليها وتعلي من قدرها على حساب العشائر الأخرى. ولعل هذا الانفتاح المتوازن على الجميع أعان في انتشار الإسلام في العشائر القرشية العديدة دون تحفظات متصلة بالعصبية، فأبو بكر الصديق من (تيم)، وعثمان بن عفان من (بني أمية)، والزبير بن العوام من (بني أسد)، ومصعب بن عمير من بني (عبد الدار)، وعلي بن أبي طالب من (بني هاشم)، وعمر بن الخطاب من (بني عدي)، وعبد الرحمن بن عوف من (بني زهرة)، وعثمان بن مظعون من (بني جُمَح)، بل إن عدداً من المسلمين في هذه المرحلة لم يكونوا من قريش، فعبد الله بن مسعود من هُذيل، وعتبة بن غزوان من مازن، وعبد الله بن قيس من

(١) أشار الباحث محمد الوثيق إلى التمثيل القبلي والجغرافي والاجتماعي والعالمي في المجتمع المكي المسلم. انظر:

- الوثيق، "القيم الحضارية في الأحاديث المكية"، مرجع سابق، ص١١٢-١١٣.

الأشعريين، وعمار بن ياسر من عنس من مَذْحج، وزيد بن حارثة من كلب، والطفيل بن عمرو من دوس، وأبو ذر من غفار، وعمرو بن عبسة من سليم، وصهيب النمري من بني النمر بن قاسط، لقد كان واضحاً منذ الوهلة الأولى أن الإسلام لم يكن خاصّاً بمكة وقريش. "[1]

أما إذا تحدثنا عن الذين أسلموا ممن ينتمون إلى القبائل العربية المقيمة حول المدينة[2] فإننا نجد عمرو بن عبسة السلمي أسلم مبكرا وهو من بني سليم؛ وكانت من القبائل المعادية لدعوة الرسول ﷺ، وحكيم بن أمية بن حارثة أسلم مبكراً وكان يصرف قومه ويردهم عما أجمعوا عليه من عداوة رسول الله ﷺ، وشارك من بني سليم في غزوة بدر ثلاثة إخوة: مالك بن عمرو، ومدلاج بن عمرو، وثقاف بن عمرو، كما حضرها عمرو بن عبسة السلمي، ومعن بن يزيد، ويزيد بن الأخنس، وحبيب السلمي. ومنهم أيضاً صفوان بن المعطل الذي شهد المريسيع. وممن حضر من أشجع الغطفانية وكانت من القبائل المعادية بدراً خارجة بن الحمير، وعبد الله بن الحمير، وعصيمة الأشجعي، وعقبة بن حليس، وغيرهم. ومن بني عبد الله وهم من غطفان برز الصحابي عقبة بن وهب الذي أسلم ولحق برسول الله ﷺ بمكة، ولم يزل هناك حتى هاجر إلى المدينة، ويقال له مهاجري أنصاري.

وبرز من عبس الغطفانية حذيفة بن اليمان، وأبوه اليمان العبسي حليف بني عبد الأشهل من الأنصار، ومن فزارة الغطفانية سمرة بن جندب. هذا عن القبائل المعادية، أما ممن أسلم من القبائل الموادعة فنجد قبيلة جهينة التي أسلم منها عمرو بن مرة

---

(١) العمري، **السيرة النبوية الصحيحة: محاولة لتطبيق قواعد المحدثين في نقد روايات السيرة النبوية**، مرجع سابق، ج١، ص١٣٣.

(٢) ينظر تفاصيل ذلك في:

- العسكر، محمد بن صالح بن محمد. **علاقة القبائل العربية المقيمة حول المدينة بالدولة الإسلامية في عهد الرسول ﷺ (١-١١هـ/ ٦٢٢-٦٣٢م)**، الرياض: مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، ط١، (١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م)، ص١٣٣-٢٧٩.

الجهني قبل بدر، وعدي بن أبي الزغباء حليف بني النجار، وبسبس بن عمرو الجهني حليف بني ساعدة الذين كان عينين لرسول الله ﷺ أثناء تحرك جيش المسلمين إلى بدر، وغيرهم... وممن أسلم من مزينة عمرو بن عوف المزني الذي قال: "كنا مع النبي حين قدم المدينة" وشارك في بدر هو ومالك بن ثابت بن نميلة، وغيرهما. وبعد أحد بسنة وفد على رسول الله وفد من مزينة في عشرة رجال منهم: خزاعي بن عبد نهم الذي بايع عن قومه، وجاء بهم مسلمين في أربع مئة رجل في رجب من السنة الخامسة، وهو أول من وفد على رسول الله ﷺ من القبائل العربية، والنعمان بن مقرن، وبلال بن الحارث. ودخل في الإسلام من بني ضمرة في السنوات الثلاث الأولى كثيرون منهم: جعال بن سراقة الذي شهد أحداً والخندق والمريسيع وذات الرقاع، ويعد واحداً من أهل الصفة، وعمرو بن أمية بن خويلد الكناني الضمري؛ وهو من مهاجرة الحبشة، وقيل أسلم بعد انصراف المشركين من أحد، وكان من القراء، وقد ذكرنا ما كان من غفار وأسلم من شأن بارز في تأييدهما لدعوة رسول الله ﷺ.

٢- دعامة الكتلة الحرجة والاحتياطي الاستراتيجي (إدارة التغيير):

تشكل الكتلة الحرجة[١] والاحتياطي "الاستراتيجي" دعامة أساسية من دعائم سنن التغير الاجتماعي التي انتهجها النبي ﷺ، وهي دعامة مكملة للدعامة الأولى حيث لا يتصور تحقيق تغير اجتماعي في غياب وجود كتلة بشرية نوعية تكون قادرة على إحداث ذلك التغير من وضعية إلى أخرى لاستكمال حلقات بناء العمران الإسلامي. لقد تشكلت تلك الكتلة الحرجة بجماعة المكيين الذين بادروا إلى الإسلام

(١) وفكرة "الكتلة الحرجة" نجدها تستخدم بشكل واضح في الفيزياء النووية حيث تدل على ذلك الحد الأدنى من كتلة مادة نووية معينة (يورانيوم٢٣٥ أو بلوتونيوم٢٣٩) كافية لدوام سلسلات متعاقبة من الانشطارات. لكن يمكن الحديث عن الكتلة دون الحرجة وهي حينما يتطلب العنصر المستخدم في عملية الانشطار النووي تسليطاً مستمراً بالنيوترونات، لتحفيز الانشطار الأول، كما يمكن الحديث عن الكتلة فوق الحرجة وهي حينما تكون كتلة العنصر المستخدم في عملية الأنشطار النووي ذو كتلة قادرة على توليد سلسلات متعاقبة من الانشطار النووي حتى دون أي تحفيز خارجي بواسطة تسليط نيوترونات خارجية فيطلق على هذه الحالة الكتلة فوق الحرجة وهي المرحلة المطلوبة لتصنيع القنبلة النووية.

وتحملوا تبعات الالتزام بمقتضياته، وبذلوا كل ما يملكون نصرة لهذا الدين واعتزازاً بهذه الرسالة الخاتمة. إن إيجاد الكتلة الحرجة لا يتطلب عقوداً من الزمن أو برامج فكرية واجتماعية وسياسية، فالفكرة المحورية التي جاءت الرسالة الخاتمة من أجل دعوة الناس إليها من خلال الوحي الإلهي هي التي كونت للوهلة الأولى تلك الكتلة الحرجة التي تفاعلت مع هذا الوحي بعد أن عمل النبي ﷺ على رفع مستوى وعي هذه الكتلة الحرجة بطبيعة الخطاب الإلهي وخصائصه.

وهذا يعني أن أي مشروع تغييري إصلاحي لا يتمكن منذ بداياته الأولى من تأسيس هذه الكتلة الحرجة التي تحمله وتدافع عنه وتبلغه للآخرين هو مشروع قد حكم على نفسه بالفشل. ويشترط في هذه الكتلة الحرجة أن تمتلك معرفة كافية بسنن التغير مع إدراكها للفكرة المحورية التي تمثل مركز عملية التغير وتتمثل في تلك المبادئ والقيم والمعايير والمفاهيم المركزية للخطاب القرآني (التوحيد، والتزكية، والعمران، والتسخير، والاستخلاف، والشهادة، والعالمية، والإنسانية). إن الفكرة المحورية لأي تغير اجتماعي أو عمران بشري لا تتحقق فعاليتها التسخيرية والاستخلافية مهما كانت أصيلة مالم تحملها جماعة بشرية بمواصفات محددة تحولها إلى واقع عملي وممارسة يومية، ذلك أن "حضارة ما هي نتاج فكرة جوهرية تطبع على مجتمع في مرحلة ما قبل التحضر الدفعة التي تدخل به التاريخ. ويبني هذا المجتمع نظامه الفكري طبقاً للنموذج الأصلي لحضارته."[1] لكن هذه الفكرة المحورية أو الجوهرية التي تحملها الكتلة الحرجة وتتفاعل معها، لا يمكنها أن تحدث التغير الاجتماعي المطلوب أو أن تقوم بوظيفتها البنائية العمرانية مالم يحدث ذلك الدافع الذي يحرك النفوس، ويحفز المشاعر والأحاسيس نحو التغيير والبناء، مثابة الحافز الحضاري الذي يستنفر الطاقات ويلهب العواطف، وينير للعقول طريقها نحو الغايات الكبرى، والمقاصد العليا للعمران الإسلامي، "إن الفكرة حينما تحل في النفس

(١) ابن نبي، **مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي**، مرجع سابق، ص٤١.

حلولاً إيمانياً، يكون حلولها ذلك هو الدافع النفسي للعمل الحضاري، والحلول افيماني للفكرة إنما هو ذلك الوضع الذي تكتسبه في النفس بالغاً فيها درجة من العمق تصبح بها مسيطرة على كل كيان الإنسان، فتوجه قدرات ذلك الكيان توجيهاً موحداً نحو العمل الإنجازي لتحقيقها في الواقع."[1]

فالكتلة الحرجة حينما تتوافر لديها الفكرة الجوهرية البانية الجامعة والقوة الإيمانية النفسية المحفزة الدافعة تستنهض بقية قوى المجتمع؛ فتتوحد طاقاته، وتتغير أطره المعرفية ومنظوماته القيمية الميتة والمميتة، وتتجه بها نحو آفاق رسالية عمرانية إنسانية راشدة. لقد كانت الكتلة الحرجة من الرعيل الأول من الصحابة تتمثل حقيقة التوحيد فكرة جامعة بانية لأسس الاستخلاف، تحرر الإنسان من كل عبوديات الأرض وجبريات المادة، وتنطلق به نحو عمران العالم، يحفزها في ذلك إيمانها العميق برسالتها الوجودية، وما ستلقاه غداً عند ربها من الرضى والنعيم المقيم. ولقد جسد النبي ﷺ تلك المعاني تجسيداً نموذجياً وهو يبني هذه الكتلة الحرجة، ويعيد صياغة أفكارها وتصوراتها وعواطفها، ويأخذ بناصيتها نحو مقاصد الرسالة الخاتمة. والناظر في سيرته عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يقف على حقيقة أن كل خير أو فضيلة دعا إليها ﷺ مثل فيها الأسوة الحسنة والقدوة النموذجية العملية التي تدفع بالكتلة الحرجة نحو الاجتماع حول مقتضيات الرسالة، وتعميق الاقتناع والإيمان بصدق صاحبها.

والناظر في السيرة النبوية يجد أن النبي ﷺ قد كون الكتلة الحرجة خلال السنوات الأولى بمكة، ثم اتجه إلى حمايتها بأن دعاها إلى الهجرة إلى بلاد الحبشة: موطن العدل والحرية، وفخر إفريقيا إلى يوم الدين أنها آوت خير جماعة بشرية على وجه الأرض ومنعتها من ظلم غيرها لها في إعلان تاريخي لكل من يتبجح بقيم إنسانية وكونية يخفي وراءها نوايا السيطرة والقهر والاستعباد العولمي. وقد شكلت هذه الخطوة النبوية فرصة للحفاظ على هذه الجماعة المسلمة الأولى؛ احتياطاً "استراتيجياً" بشرياً يؤمن به

(١) النجار، **فقه التحضر الإسلامي**، مرجع سابق، ص٣٣.

ﷺ مستقبل مشروع العمران الرسالي ويضمن استمراريته وبقاءه.

إن هذه الدعامة والتي قبلها يرتبطان معاً بصناعة الرأسمال البشري، وتدبيره وإدارته وتنمية موارده وقدراته، لتكون التنمية الحقيقية هي تنمية الإنسان، ويكون مركز التغير وبناء العمران هو الإنسان وليس المادة. لقد تغير الإنسان العربي برسالة الإسلام وجدانيا، وذوقيا، ونفسيا، وعاطفيا، وفكريا، واجتماعيا، وسياسيا، تغير الإنسان فتغيرت البنى الاقتصادية والسياسية والاجتماعية.

٣- دعامة الفرص المتاحة والتهديدات الممكنة، وضبط مسارات التغيير وتوجيهها:

لا شك أن الأحداث العظيمة في تاريخ الأفراد والأمم يصنعها اقتناص الفرص التي تتيحها البيئة الخارجية والمحيط الاجتماعي والسياسي. إن الفرصة في حد ذاتها لحظة من لحظات التاريخ، وقدر من أقدار الله الجارية على الخلق تخبر من يغتنمها أنها تختزن عوامل النهضة والتحرر، وأن من يغفل عنها لجهله أو سوء تدبيره، فإن الدَّين الحضاري المتمثل في تعميق التخلف سيكون باهظا، والخسارة في ميدان التدافع التعميري ستكون كبيرة. إن تشكيل العصبة الاجتماعية الصانعة للتغير، وتكوين الكتلة الحرجة والاحتياطي "الاستراتيجي" القادر على إدارة التغير وتدبيره لا يكون لهما أثر في ضبط مسارات التغير وتوجيهها مالم يتملكا الجاهزية القصوى والضرورية لاقتناص الفرصة واغتنامها، واستثمارها، وتفعيل معطياتها، ولا يتحقق ذلك إلا باستدامة النظر في الأسباب الظاهرة والخفية المتحكمة في المجتمع، والقدرة على التنبؤ والتوقع والاستشراف. "

وفي بطن مكة، ظهر الإسلام، وبعث محمد ﷺ في أرض، لا تعد معطياتها بناء رسالة، ولا بنقطة بدء صالحة. فالتنافس العائلي على أشده بين أهلها، والناس تأبى أن تتبع إلا من كان غنياً قوياً، وهي مركز العقيدة الوثنية، والطبقية الاجتماعية حادة، والحالة المادية لا تسمح بمهمة تشمل إصلاح العالم، استجابة لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَآ

أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، والمواصلات المتوفرة تجعل العالم جزراً متباعدة، والاتصالات تنتقل ببطء السلحفاة، ولو بحثت في الجزيرة يومها، فهيهات أن تجد قبيلتين ليس بينهما ثأر، والاقتصاد البدوي يقوم على الغزو، والغنيمة، والحياة مرتبة على هذه الأسس، فكيف ستنفذ الدعوة من خلال هذه المعطيات، إلى هذه البيئة أولاً ثم إلى العالم"[1] ولكنها نفذت وفق أقدار الله تعالى وسننه.

ومن يتأمل كثيراً من الاختيارات والقرارات النبوية يلحظ مدى ما كان يملكه ﷺ من النظر في الفرص المتاحة والتهديدات والمخاطر المتوقعة، فقد كان عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ على الدوام مستصحباً للبعد المستقبلي الذي لا تأسره الوقائع الظرفية، وإنما يتلمس الفرص المتاحة، ويعالج التهديدات المتوقعة، ويوازن بين خيارات ومسارات متعددة. لقد كان عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يصغي للحظة التاريخية التي تمر منها الإنسانية يومها، من يوم بعث رحمة للعالمين إلى يوم أن اختار الرفيق الأعلى، كان دون انقطاع دائم الفكرة، طويل التأمل، يتمتع بأعلى مستويات الجاهزية وأقصى درجات التفاعل والاستجابة للأحداث والوقائع. وقد مرت في البحث إشارات تفصيلية في مواضع مختلفة بما يصلح أن يكون هنا شواهد تنهض على اطراد هذه الدعامة في سيرته ﷺ مثل: المصداقية والوجاهة الأخلاقية والاجتماعية التي كانت تميز شخصيته عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ حتى لقبته قريش قبل مبعثه بالصادق الأمين، والهجرة إلى الحبشة بما تفيده من اعتبار التهديدات المتوقعة والمخاطر المرتقبة، وبيعة العقبة الأولى والثانية وما تحيل عليه من مهارة الإصغاء للحظة التاريخية والبراعة في استثمار الفرصة الذهبية التي جاد بها قدر الله تعالى، وما حصل يوم صلح الحديبية دروس وعبر، تتعلم منها قيادات الأمة فقه الأولويات وفقه الموازنات المصلحية، وتميز بين الثوابت والأصول والمتغيرات والفروع، وبين الفرص الحقيقية وأحلام الأتباع الخيالية أو الجانحة، وزواجاته ﷺ بأمهات المؤمنين وما تحقق بسبب ذلك من المصالح والفرص مثل إسلام

(١) سلطان، جاسم محمد. **الذاكرة التاريخية للأمة**، المنصورة: مؤسسة أم القرى، ط١، ٢٠٠٧م، ص٧٦.

بني المصطلق حين زواجه ﷺ بجويرية بنت الحارث رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا. "فعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قالت : لما قسم رسول الله ﷺ سبايا بني المصطلق، وقعت جويرية بنت الحارث في السهم لثابت بن قيس بن الشماس، أو لابن عم له، فكاتبته على نفسها، وكانت امرأة حلوة ملاحة، لا يراها أحد إلا أخذت بنفسه فأتت رسول الله ﷺ تستعينه في كتابتها؛ قالت عائشة: فوالله ما هو إلا أن رأيتها على باب حجرتي فكرهتها، وعرفت أنه سيرى منها ﷺ ما رأيت، فدخلت عليه، فقالت: يا رسول الله، أنا جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار، سيد قومه، وقد أصابني من البلاء، ما لم يخف عليك، فوقعت في السهم لثابت بن قيس بن الشماس، أو لابن عم له، فكاتبته على نفسي، فجئتك أستعينك على كتابتي، قال: "فهل لك في خير من ذلك؟" قالت: وما هو يا رسول الله؟ قال: "أقضي عنك كتابتك وأتزوجك"؛ قالت: نعم يا رسول الله؛ قال: "قد فعلت" قالت: وخرج الخبر إلى الناس أن رسول الله ﷺ قد تزوج جويرية ابنة الحارث بن أبي ضرار، فقال الناس: أصهار رسول الله ﷺ، وأرسلوا ما بأيديهم؛ قالت: فلقد أعتق بتزويجه إياها مئة أهل بيت من بني المصطلق، فما أعلم امرأة كانت أعظم على قومها بركة منها."[1]

٤- الخصوبة والبدائل، وحماية مكتسبات التغيير واستشراف آفاقه:

تتعلق هذه الدعامة بالقدرة على حماية مكتسبات التغيير بهدف تحقيق أعلى درجات الإنجاز نحو إقامة العمران الإسلامي العالمي، ومتابعة تطوراته، وتقويم نتائجه، واستشراف آفاقه المستقبلية. ونقصد هنا بالخصوبة؛ خصوبة الرأي والفكر، والخصوبة الطبيعية المتعلقة بالنمو الديموغرافي والتكاثر الطبيعي. وتفرض الخصوبة الأولى إشاعة قيم الحرية والعدل والحق في المعارضة وإبداء الرأي وأجواء الشورى والحوار

---

(١) رواه ابن إسحاق وإسناده حسن، ومن طريقه أبو داود. انظر:

- السجستاني، **سنن أبي داود**، كتاب: العتق، باب: في بيع المكاتب إذا فسخت الكتابة، ج٢، ص٤١٥، حديث رقم: (٣٩٣١).

- ابن هشام، **السيرة النبوية**، مرجع سابق، ج٢، ص٢٩٤-٢٩٥.

التي تجعل التجديد يسري في روح الأمة وجسمها الاجتماعي والسياسي، في حين تفرض الخصوبة الثانية نوعاً من الاستقرار الاقتصادي والنفسي. وترتبط الخصوبة الفكرية والطبيعية بخصوبة أخرى وهي خصوبة البدائل؛ فحينما سعى النبي ﷺ لتنمية خصوبة الفكر وخصوبة التناسل وفق سنن الله تعالى في التداول والتدافع، برزت بدائل وخيارات وإمكانات متعددة جعلت العمران الإسلامي ينفتح على آفاق عديدة.

وإذا كنا قد أسلفنا الحديث عن مسألة الإحصاء وهي جزء من قضية الخصوبة الطبيعية، فإن النبي ﷺ ظل ينبه أمته أمر الفتن القادمة، وهو تنبيه يدل على ضرورة تفكير الأمة في البدائل والفرص التي تواجه بها أمر الفتن أو تتحاشى الوقوع فيها دفعاً لأقدار الله تعالى بأقدار أخرى، ولذلك تعد أحاديث الفتن بحق رؤى مستقبلية "وإلا ما معنى وجدوى ورود أحاديث الفتن، والتحذيرات المستقبلية، مما يمكن أن تصير إليه الأمور؟ وما هو موقف المسلم، إذا لم يمتلك مدافعة قَدَر بقَدَر، ويستلم زمام المبادرة في الحيلولة دون الفتن، وكيفية التعامل معها حال وقوعها؟ ما الفائدة من أحاديث الفتن، إذا لم تُدرك أبعادها على أنها إشارات مستقبلية، لا بد أن نأخذ حذرنا تجاهها، ونعد لها ما استطعنا؟ إن سنن السقوط والنهوض، أو القوانين التي تخضع لها مجتمعات البشر، لم تقتصر في معرفة الوحي على قراءة الماضي، أو استيعاب الحاضر فحسب، وإنما تجاوزت حدود المنظور إلى تقديم رؤى مستقبلية، تسبق الزمن، لنُحسن الإعداد، والاستعداد، للتعامل معه."[1]

إن ذكر الفتن في الهدي النبوي لا يدل على الاستسلام لها بنفسية انتظارية سلبية، واجتماع بشري سكوني تجمدت فيه قوى التفكير والإبداع والحركة، وإنما هي بمنطق السنن استنهاض للهمم وشحذ للعزائم، واستثارة للعقول والقلوب حذراً من الوقوع فيها، وحينما تنكبت الأمة طريق السنن صار بعضهم يبحث في الوقائع والأحداث ما يثبت صدق هذه النبوءات، بل يلوي أعناق الأحاديث ويفسرها بهواه حتى تنطبق على

(١) عويس، **التأصيل الإسلامي لنظريات ابن خلدون**، مرجع سابق، ص١٨، من مقدمة عمر عبيد حسنة.

ما يجري في زمانه. إن الفتن التي حذر منها النبي ﷺ دعوة لتجهد الأمة نفسها فتتجنبها بسلوكها مسلك السنن الإلهية في تحصين ورعاية العمران والاجتماع الإنساني، وتدبيرها وإدارتها بحكمة إذا ما وقعت، وإطفائها بالسنن الحاكمة ومقاصد الدين وقيمه الناظمة لا أن تتحول إلى رماح وسهام يصيب بها بعضهم إخوانه من المسلمين شماتة وادعاء. وقد روت أُمَّ سَلَمَةَ زَوْجَ النَّبِيِّ ﷺ قَالَتْ: "اسْتَيْقَظَ رَسُولُ الله ﷺ لَيْلَةً فَزِعاً يَقُولُ: "سُبْحَانَ الله مَاذَا أَنزلَ الله مِنْ الْخَزَائِنِ؟ وَمَاذَا أُنزلَ مِنْ الْفِتَنِ؟ مَنْ يُوقِظُ صَوَاحِبَ الْحُجُرَاتِ، يُرِيدُ أَزْوَاجَهُ، لِكَيْ يُصَلِّينَ؟ رُبَّ كَاسِيَةٍ فِي الدُّنْيَا عَارِيَةٍ فِي الْآخِرَة"[1] وإذا كان الحديث قد أشار إلى الخزائن والفتن إشارة مغايرة، فـ"المغايرة بين الخزائن والفتن أوضح لأنهما غير متلازمين، وكم من نائل من تلك الخزائن سالم من الفتن"[2] ولا شك أن الخزائن إمداد رباني وقدر الله الدال على رحمته، والفتن كقطع الليل المظلم، فيكون نداؤه بالليل فيه معنى خفاء الفتن والخزائن مع ضرورة التنبه لهما، فيحتاج معه المسلم إلى فقه استثمار السنن، لدفع الفتن ودرئها بالخزائن. وعن أسامة بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: "أشرف النبي ﷺ على أطم من آطام المدينة فقال: "هل ترون ما أرى؟" قالوا: لا. قال: "فإني أرى الفتن تقع خلال بيوتكم كوقع القطر"[3] لقد كشف لرسول الله ﷺ من أمر الفتن ووقوعها ومواقعها كمثل وقع المطر

---

(١) البخاري، **الجامع الصحيح**، مرجع سابق، كتاب: العلم، باب: العلم والعظة بالليل، ج١، ص٥٤، حديث رقم: (١١٥). وفي كتاب: التهجد، باب: تحريض النبي ﷺ على قيام الليل والنوافل من غير إيجاب، وطرق النبي ﷺ فاطمة وعلياً عَلَيْهِمَا السَّلَامُ ليلة للصلاة، ج١، ص٣٧٩، حديث رقم: (١٠٧٤). وفي كتاب: المناقب، باب: علامات النبوة في الإسلام، ج٣، ص١٣١٧، حديث رقم: (٣٤٠٤). وفي كتاب: اللباس، باب: ما كان النبي ﷺ يتجوز من اللباس والبسط، ج٥، ص٢١٩٨، حديث رقم: (٥٥٠٦). وفي كتاب: الأدب، باب: التكبير والتسبيح عند التعجب، ج٥، ص٢٢٩٦، حديث رقم: (٥٨٦٤). وفي كتاب: الفتن، باب: لا يأتي زمان إلا الذي بعده شر منه، ج٦، ص٢٥٩١، حديث رقم: (٦٦٥٨).

(٢) ابن حجر العسقلاني، **فتح الباري بشرح صحيح البخاري**، مرجع سابق، ج١، ص٢١٠.

(٣) رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما. انظر:

- البخاري، **الجامع الصحيح**، مرجع سابق، كتاب: فضائل المدينة، باب: آطام المدينة، ج٢، ص٦٦٤، حديث رقم: (١٧٧٩). وكتاب: المظالم، باب: الغرفة والعلية المشرفة وغير المشرفة في السطوح =

ومواقعه في الكثرة والعموم، وسواء كان هذا الكشف كشف رؤية على الحقيقة، فرأى ما لم يره غيره -وهو ظاهر الحديث- وهذا معلوم من سيرته ﷺ، أم كان كشف علم ومعرفة، أم هما معاً وهو ما أراه مناسباً لمقام النبوة، فإن ذلك عد من علامات النبوة ورحمة بالأمة وتنبيهاً لها على الأخذ بسنن الله تعالى في رؤية الفتن وكشفها والعلم بها والتأهب لها، قال ابن بطال فيما نقله عنه ابن حجر: "وأخبر في حديث أسامة بوقوع الفتن خلال البيوت، ليتأهبوا لها فلا يخوضوا فيها، ويسألوا الله الصبر والنجاة من شرها"[1] وهذا فقه سنني ينظر في الفتن قبل وقوعها، ويؤسس لنظرة تستشرف مواقع الفتن ووقعها على الأمة فتحتاط لدينها، وتعي الأسباب المفضية إلى ما يخشى عليها من افتراقها وتنازعها وذهاب ريحها.

وفي حديث القصعة قوله ﷺ "يوشك أن تداعى الأمم عليكم كما تداعي الأكلة إلى قصعتها" قالوا أو من قلة نحن يومئذ يارسول الله؟ قال: لا، بل أنتم كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعن الله من صدور أعدائكم المهابة منكم، وليقذفن في قلوبكم الوهن". قيل: وما الوهن يا رسول الله؟ قال: حب الدنيا وكراهية الموت."[2] إن التشخيص السنني الذي قدمه الحديث النبوي وتقوم وقائع السيرة شاهدة عليه تشخيص لوضعية سيعيشها النسق القيمي، والبناء الاجتماعي، والمنظومة الثقافية للأمة، وهي وضعية التداعي الأممي العالمي المستنزف لطاقات الأمة والمعطل لقدراتها في بناء العمران نتيجة لحالة الغثائية الحضارية. كما تصحح الرؤية النبوية المنظور التفسيري لهذا التداعي الذي يحصل تبعاً لسنن الله في التدافع والتداول. فأي خلل في

= وغيرها، ج٢، ص٨٧١، حديث رقم: (٢٣٣٥). وكتاب: المناقب، باب: علامات النبوة في الإسلام، ج٣، ص١٣١٧، حديث رقم: (٣٤٠٢). وكتاب: الفتن، باب: قول النبي ﷺ ويل للعرب من شر قد اقترب، ج٦، ص٢٥٨٦، حديث رقم: (٦٦٥١).

- القشيري، **صحيح مسلم**، مرجع سابق، كتاب: الفتن وأشراط الساعة، باب: نزول الفتن كمواقع القطر، ج٤، ص٢٢١١، حديث رقم: (٢٨٨٥).

(١) ابن حجر العسقلاني، **فتح الباري بشرح صحيح البخاري**، مرجع سابق، ج١٣، ص١٣.

(٢) تقدم تخريجه صفحة (٥٥٥) من هذا الكتاب.

فهم مشكلات الأمة الحضارية ينتج عنه لا شك خلل واضطراب في الحلول المقدمة لتجاوزها، فالأمر هنا يتعدى مجرد اختلال في الميزان الكمي العددي سواء تعلق ذلك بعالم الأشياء أو بعالم الأشخاص إلى اختلال في عالم الأفكار والتصورات والمعتقدات عبر عنه الرسول ﷺ بالوهن.

إن الهدي النبوي يعيد تحديد مركز الرؤية القادرة على إبصار سنن الله في التاريخ والاجتماع البشري، وعلى استئناف السير العمراني للأمة، لتجاوز حالة الوهن والوضع النفسي والاجتماعي الذي قدم له الحديث توصيفاً دقيقاً جامعاً لواقع الأمة وهو وصف الغثائية، وبذلك يكون النبي ﷺ قد وضع بسنته، وسيرته، منهج حماية مكتسبات العمران البشري واستشراف آفاقه.

ثالثاً: الفقه السنني في توقع الأزمات في ضوء الهدي النبوي

لقد كان النبي ﷺ كما تفيد كتب المغازي والسير وأبواب الصحاح والسنن والمسانيد يملك رؤية واضحة عن المستقبل، وبصيرة سننية نافذة في تدبير المواقف وإدارة الأزمات، وتوقع الأحداث واستشراف الغد القادم، للتمكين للدين وإقامة العمران والاجتماع الإسلامي وفق أهداف دقيقة، وأولويات منضبطة، وتقدير لملابسات وظروف الواقع المتحول، وتوظيف للإمكانات والقدرات المتاحة، وطبيعة المواجهات المحتملة، والتهديدات الممكنة والفرص المتاحة، وهو مايفرض علينا إعادة قراءة فصول أحداث السيرة النبوية وفق هذه المقاربة المستقبلية السننية التي تستحضر المنظور الاستشرافي الاستباقي الذي كان ينهجه ﷺ، مما يشكل إضافة جديدة في استثمار الإرث النبوي الخالد، وتمثله عملياً للإجابة على بعض قضايا الواقع ومستجدات العصر. لكن هذه القراءة لا بد أن تتم -كما سبقت الإشارة إليه- بأطر معرفية، وضوابط منهجية، وأدوات ووسائل تحليلية من داخل المنظومة العقدية والتشريعية والقيمية الإسلامية، تراعي مقاصد الشريعة وكلياتها الأساسية، وهو ما ينهض وحده، لتشكيل رؤية نحو تبصر المستقبل وإحكام النظر فيه ورسم مساراته

ومشاهده المحتملة، لضمان الرشد الحضاري وتحقيق الشهادة على العالمين. ولعل هذا من أعظم مجالات الاقتداء وأجل مواطن التأسي والمتابعة الواعية البصيرة للمنهج النبوي؛ لأنه متعلق بالفقه الحضاري واستعادة الأمة الوسط لوراثتها الحضارية، بما يختزنه ذلك التأسي المقاصدي الموضوعي من أصالة وفعالية واطراد، وبما يمثله من استجابة حيوية لحاجات الواقع الراهن وتطلعات الأمة المستقبلية ويمكنها من مواجهة التحديات والتهديدات المحتملة.

يمكن القول: إن السيرة النبوية مصدر أساسي من مصادر معرفة أصول وقواعد الفقه المستقبلي في توقع الأزمات وإدارتها، وأن النبي ﷺ كان يملك رؤية واضحة ومتوازنة ودقيقة عن المستقبل وتدبير التدافع وترشيده -وهو عمق تحقيق الامتداد الزماني والمكاني للرسالة- بعيداً عن التفكير الخرافي أو الخوارقي الذي لا ينظر باستبصار ووعي سنني متكامل. والذي يتبين للناظر أن قواعد الفقه المستقبلي في توقع الأزمات وإدارتها في ضوء السيرة النبوية لا تنفصل عن الأصول والكليات والمقاصد الكبرى التي جاءت من أجل تحقيقها الشريعة الإسلامية، كما أن هذه القواعد والأصول لا ترتبط بمجال دون آخر، وإنما تتعلق بالحياة الشخصية والاجتماعية والسياسية والإدارية لشمول سيرته ﷺ لكل مناحي الحياة.

ومن يتأمل كثيراً من وقائع السيرة وأحداثها يدرك حقيقة الأفق المستقبلي -في رحابته وامتداده- الذي كان يملكه الرسول ﷺ لا سيّما في التعامل مع الأزمات: توقعاً وإدارة وتدبيراً وقائياً، سواء على مستوى المنهج، أم الأسلوب، أم الوسيلة، بما يفيد قدرة على التحكم في حركة الأحداث مع النظر في مآلاتها المستقبلية، كما يفيد أيضاً رصد تحولات الواقع وتداعياته وتفاعلاته. فقد كان ﷺ يستشرف قدر الله المستقبلي بوعي تام، وبصيرة نافذة من خلال ثلاثية فريدة هي جماع القواعد في إدارة الأزمات وتوقعها وهي: تدبير الزمن، وإحكام صناعة القرار، والتقدير الجيد للموقف.

١ - أصول الفقه المستقبلي في توقع الأزمات، وإدارتها في ضوء السيرة النبوية:

إن البحث في أصول الفقه المستقبلي في توقع الأزمات وإدارتها في ضوء السيرة النبوية هو بحث في الأسس الناظمة لهذا الفقه والموجهة لقضاياه الكلية والجزئية برؤية إسلامية، وبهذه الأصول ينتظم عقد هذا الفقه وتظهر سمة التوازن والتكامل والواقعية بين مكوناته، بخلاف ما هو مقرر في الأدبيات المعاصرة لا سيّما الغربية منها أو المتأثرة بها. ويمكن القول "أن نظام إدارة الأزمات على الجوهر والأساس العلمي في المفاهيم الحديثة[١] واقع سبق أن عرفته الدولة الإسلامية العظمى منذ بداية تأسيسها على يد رسولنا ﷺ. وبالبحث الدقيق في سيرته العطرة؛ سواء في حياته الاجتماعية الأولى أو حياته السياسية والإدارية والحربية، سيجد المرء ما لا يعد ولا يحصى من أصول منهجية لعلم إدارة الأزمات"[٢] ويمكن تحديد هذه الأصول[٣] وما يرتبط بها من عناصر وقضايا فيما يأتي:

أ- الأصل الإيماني:

وهو أصل عقدي مكين في أن المستقبل وعد الله وقدره الذي لا يتخلف ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾﴾ [النساء: ١٢٢]. ومتى استكمل المسلم شروط تحقق الوعد الإلهي لأهل الإيمان استخلفه الله في الأرض ومكن الله له وبدله من بعد خوف (أزمة وغمة) أمنا. وقد كان ﷺ الغاية في تمثل هذا الأصل، وفي تربية أصحابه وهو يدير الأزمات التي واجهت الأمة على مستوى الفرد والمجتمع

---

(١) نستدرك هنا على الباحث الفاضل أن الناظر في سيرته ﷺ يتبين له سبقه لهذه الأسس لكن تجاوزه لها أيضاً في بعض ما ذهبت إليه، لافتقارها بعض الأصول المعتبرة وعدم تحققها بعنصر التوازن والتكامل كما سيأتي بيانه في الفقرات اللاحقة.

(٢) رضوان، رضا عبد الحكيم. "إدارة الأزمات في التشريع الإسلامي"، **مجلة الفيصل**، السنة (٢٤)، العدد (٢٧٧)، رجب ١٤٢٠هـ، ص٦٧-٦٨.

(٣) سيتم ذكر الشواهد على هذه الأصول عند الحديث عن العناصر التفصيلية لقواعد الفقه المستقبلي في توقع الأزمات، واكتفينا فقط بذكر الشواهد على الأصل الإيماني تمثيلاً لا حصراً.

والدعوة والدولة منذ أن بشر بالرسالة؛ النور الخالد. وقد تعرضت دعوته ﷺ وجماعة الإيمان الأولى لأشكال من الإيذاء والاضطهاد والسخرية[1] والحصار[2]

(١) في مصادر السيرة والحديث شواهد كثيرة على ما لقيه النبي ﷺ من أذى أبي جهل وعقبة بن أبي معيط. وفي رواية مسلم: "فقال أبو جهل: أيكم يقوم إلى سلا جزور بني فلان فيأخذه، فيضعه في كتفي محمد إذا سجد. فانبعث شقي القوم (هو عقبة بن أبي معيط) فأخذه، فلما سجد النبي ﷺ وضعه بين كتفيه، فاستضحكوا، وجعل بعضهم يميل على بعض، وأنا قائم أنظر، لو كانت لي منعة طرحته عن ظهر رسول الله ﷺ والنبي ساجد، ما يرفع رأسه،... " وقد دعا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ على النفر السبعة من المشركين الذين استخفوا برسول الله ﷺ حتى قال ابن مسعود راوي الحديث: "لم أره دعا عليهم إلا يومئذ." كما وردت روايات في اضطهاد قريش للمسلمين. انظر:

- البخاري، **الجامع الصحيح**، مرجع سابق، كتاب: الصلاة، باب: المرأة تطرح عن المصلي شيئاً من الأذى، ج١، ص١٩٤، حديث رقم: (٤٩٨). وفي كتاب: الوضوء، باب: إذا ألقي على ظهر المصلي قذر أو جيفة لم تفسد عليه صلاته، ج١، ص٩٤، حديث رقم: (٢٣٧). وفي كتاب: مناقب الأنصار، باب: ما لقي النبي ﷺ وأصحابه من المشركين بمكة، ج٣، ص١٣٩٨، حديث رقم: (٣٦٣٩-٣٦٤٣).
- القشيري، **صحيح مسلم**، مرجع سابق، كتاب: الجهاد والسير، باب: ما لقي النبي من أذى المشركين والمنافقين، ج٣، ص١٤١٨، حديث رقم: (١٧٩٤).
- ابن حجر العسقلاني، **فتح الباري بشرح صحيح البخاري**، مرجع سابق، ج١، ص٣٥٢.

(٢) ورد خبر قصة حصار الشعب مفصلاً من مرسل الزهري، وهو مرسل حسن. وأورد ابن إسحاق قصة حصار الشعب في سيرته. وقد أخرج البخاري ومسلم في صحيحيهما ما يدل على أن أصل قصة الحصار في شعب أبي طالب ثابت صحيح. قال ابن حجر: "ولما لم يثبت عند البخاري شيء من هذه القصة اكتفى بإيراد حديث أبي هريرة؛ لأن فيه دلالة على أصل القصة، ولأن الذي أورده أهل المغازي من ذلك كالشرح، لقوله في الحديث: "تقاسموا على الكفر." وفيه قول عبد الله بن عمر" :كان الإسلام قليلاً فكان الرجل يفتن في دينه إما قتلوه وإما يعذبونه حتى كثر الإسلام فلم تكن فتنة." وهو قول يلخص حال المسلمين بمكة وبعدها. انظر:

- ابن عبد البر، **الدرر في اختصار المغازي والسير**، مرجع سابق، ص٢٧-٣٠.
- ابن هشام، **السيرة النبوية**، مرجع سابق، ج١، ص٣٥٠-٣٥٤.
- البخاري، **الجامع الصحيح**، مرجع سابق، كتاب: الحج باب: نزول النبي ﷺ بمكة، ج٢، ص٥٧٦، حديث رقم: (١٥١٢-١٥١٣). وكتاب: مناقب الأنصار، باب: تقاسم المشركين على النبي ﷺ، ج٣، ص١٤٠٨، حديث رقم: (٣٦٦٩). وكتاب: التفسير، باب: "وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله، ج٤، ص١٦٤١، حديث رقم: (٤٢٤٣).
- القشيري، **صحيح مسلم**، مرجع سابق، كتاب: الحج، باب: استحباب النزول بالمحصب يوم النفر والصلاة به، ج٢، ص٩٥٢، حديث رقم: (١٣١٤). =

والإغراء[1] ومصادرة الأموال، وهي ابتلاءات وفتن لإعداد الصفوة المؤمنة لتحمل أعباء الرسالة، "وما بالله -حاشا لله- أن يعذب المؤمنين بالابتلاء، وأن يؤذيهم بالفتنة، ولكنه الإعداد الحقيقي لتحمل الأمانة، فهي في حاجة إلى إعداد خاص لا يتم إلا بالمعاناة العملية للمشاق، وإلا بالاستعلاء الحقيقي على الشهوات، وإلا بالصبر الحقيقي على الآلام، وإلا بالثقة الحقيقية في نصر الله وثوابه على الرغم من طول الفتنة وشدة الابتلاء، والنفس تصهرها الشدائد، فتنفي عنها الخبث وتستجيش كامن قواها المذخورة فتستيقظ وتتجمع، وتطرقها بعنف وشدة فيشتد عودها ويصلب ويصقل، وكذلك تفعل الشدائد بالجماعات، فلا يبقى صامداً إلا أصلبها عوداً وأقواها طبيعة، وأشدها اتصالاً بالله، وثقة فيما عنده من الحسنيين النصر أو الأجر، وهؤلاء هم الذين يسلمون الراية في النهاية مؤتمنين عليها بعد الاستعداد والاختبار"[2] كما تعرضت دولة الإسلام بالمدينة لأزمات متعاقبة من لدن ثلاث دوائر استكبارية معادية وهي: المشركون واليهود والمنافقون، سواء من خلال الدعاية وحرب الإشاعات، أو محاولات اغتيال الرسول ﷺ القائد، أو الحرب الكلامية باعتماد الجدل والمراء، أو من خلال عقد تحالفات لإسقاط هذه الدولة، أو إثارة النزعات العصبية الجاهلية لإحداث شرخ في الصف الداخلي للمجتمع المدني المسلم. وقد أسهمت التربية الإيمانية في وحدة الصف وتجاوز هذه الأزمات تجسيداً عملياً لمقتضيات التوحيد والتوكل، وتسليم الأمر لله (الثقة واليقين)، واحتساب الأجر، والتجرد من الحظ الدنيوي، والتوجه إلى الله بالدعاء مع عدم الاغترار بالجهد المبذول لاستشراف المستقبل وإدارة الأزمات وتوقعها؛ لأنه جهد نسبي احتمالي ظني غير يقيني، ويبقى على الدوام محكوماً بالإرادة والمشيئة الإلهية. وبمثل الدعاء والتوجه إلى الله يتقوى

= - ابن حجر العسقلاني، **فتح الباري بشرح صحيح البخاري**، مرجع سابق، ج٧، ص١٩٣.

(١) الحوار الذي جرى بين النبي ﷺ وعتبة بن ربيعة. أخرجه غير واحد، وقد تقدم بيان ذلك. انظر: - صفحة (٤٩٩) من هذا الكتاب.

(٢) قطب، **في ظلال القرآن**، مرجع سابق، ج٦، ص٣٨٩.

ذلك الظن لتوسله بالإرادة الربانية الحكيمة العليمة.

ب- الأصل الأخلاقي القيمي:

وهو أصل متفرع عن الأصل الأول ومؤسس عليه؛ إذ الإيمان الحق هو الذي يثمر قيماً وأخلاقاً قادرة على امتصاص حر الأزمة. وقد ركز النبي ﷺ في النفوس أخلاق الصبر وعدم الاستعجال، وأقام نظام المؤاخاة ومبدأ الولاء والنصرة والإيواء بين جماعة المؤمنين، ونمّى فيهم قيم الإيجابية والمبادرة والعمل الجماعي ومبدأ المشاركة، ونبذ الفكر التبريري التخذيلي التأزيمي مع تربية الفريق القيادي من الصحابة على المرونة والقابلية للتغيير على مستوى الخطط أو المواقف أو الإجراءات...

ت - الأصل المعرفي:

ويقوم هذا الأصل على:

- وضوح المرجعية الموجهة وحضورها في التشاور، والتفاوض، والتحالف، والمواجهة، والاحتواء أثناء إدارة الأزمة أو توقعها.
- النظر الكلي المقاصدي الذي يتحرك بفقه الأولويات والموازنات، ويدرك حقيقة استحضار المبشرات والرؤى والفتن المقبلة في إدارة الأزمات، وتوقعها بنظرة متوازنة لا تجعل من المبشرات وسيلة للركون أو الاغترار، ولا تجعل من الفتن وسيلة لانتظار الأسوء فيكون العجز والاستسلام.
- مركزية الوعي بالزمن (الوعي التاريخي) في الرؤية المستقبلية النبوية لإنجاز مقتضيات الرسالة، مما يدل على الواقعية في التعامل مع معطيات الأزمة، ورفض كل نزوع مثالي لا يستحضر السنن، ولا يعبأ بنتائج السير في الأرض.

ث- الأصل التنظيمي:

ويتعلق بالجانب الإداري، والهيكلي، والتدبيري من خلال اعتماد أجهزة التخطيط، والتنفيذ، والتوجيه، والضبط، والمتابعة، والحماية، والتقويم، والاستشراف.

٢- قواعد الفقه المستقبلي في توقع الأزمات في ضوء السيرة النبوية:

إن سمة المفاجأة والمباغتة التي توصف بها الأزمة تجعل من توقعها أمراً ضرورياً وملحاً -لدرء أسبابها أو على الأقل الاستعداد لها والتخفيف من آثارها- وفي الوقت نفسه مطلباً صعباً. وإذا كان توقع الأزمة سابقاً على إدارتها، فإنه كثيراً ما يتم إدراج مرحلة التوقع ضمن مرحلة ما قبل الأزمة، على فرض أن التوقع لا يمنع وقوعها، وإنما يخبر به بدافع التأهب لاحتوائها وإدارتها. ويمكن عرض أهم هذه القواعد المتعلقة بتوقع الأزمات بناء على استقراء لوقائع السيرة النبوية من خلال ما يأتي:

أ- رصد ظواهر النفاق والإرجاف في التنظيم الاجتماعي:

إن إثارة الأزمة وإشعال نار الفتن بلغة القرآن هو الإرجاف؛ إذ غرض الإرجاف هو بث الرعب، وزعزعة القلوب، وتحطيم المعنويات، وتخذيل النفوس، أو كل مايسوء المؤمن، قال القرطبي في تفسيره لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾﴾ [الأحزاب:٦٠-٦٢]. "والمرجفون في المدينة قوم كانوا يخبرون المؤمنين بما يسوءهم من عدوهم، فيقولون إذا خرجت سرايا رسول الله ﷺ: إنهم قد قتلوا أو هزموا، وإن العدو قد أتاكم، ... وقال ابن عباس: الإرجاف التماس الفتنة، والإرجاف: إشاعة الكذب والباطل للاغتمام به. وقيل: تحريك القلوب، يقال: رجفت الأرض -أي تحركت وتزلزلت- ترجف رجفاً. والرجفان: الاضطراب الشديد. والرجاف: البحر، سمي به لاضطرابه... فالإرجاف حرام؛ لأن فيه إذاية.

فدلت الآية على تحريم الإيذاء بالإرجاف... قوله تعالى: "لنغرينك بهم" أي لنسلطنك عليهم فتستأصلهم بالقتل."[1] فقد دعا الحق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى نبيه إلى اتخاذ

(١) القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، مرجع سابق، ج١٤، ص٢٤٥.

موقف حازم ضد هؤلاء مع الحيطة والحذر الدائم. وهذه قاعدة كبرىٰ في توقع الأزمات؛ إذ عملية الإرجاف سابقة عليها وتستهدف إضعاف التنظيم الاجتماعي، وخلخلة التماسك الداخلي للمجتمع المسلم، وهي بداية قبول الإشاعة والاغتمام بها فيضطرب الصف وتحار القيادة، ويصعب اتخاذ القرار. وقد تجلىٰ هذا الرصد لظاهرة النفاق والإرجاف من خلال تعامله ﷺ مع المنافقين واليهود بالمدينة؛ فكشف عن مقاصد المنافقين، وجعلهم يفتضحون دون أن يدخل معهم في مواجهة غير مقدرة النتائج، وأجلىٰ اليهود[1] بعدما خالفوا بنود الصحيفة وتحالفوا مع الشرك وأقدموا علىٰ اغتيال الرسول ﷺ في محاولة فاشلة. وفي هذا المعنىٰ من التحالف بين المنافقين واليهود والمشركين أورد ابن حجر حديثاً رواه ابن مردويه "أن رجلاً من أصحاب النبي ﷺ قال: كتب كفار قريش إلىٰ عبد الله بن أبي وغيره ممن يعبد الأوثان قبل بدر يهددونهم بإيوائهم النبي ﷺ وأصحابه ويتوعدونهم أن يغزوهم بجميع العرب، فهمَّ ابن أبي ومن معه بقتال المسلمين، فأتاهم النبي ﷺ فقال: ما كادكم أحد بمثل ما كادتكم قريش، يريدون أن تلقوا بأسكم بينكم، فلما سمعوا ذلك عرفوا الحق فتفرقوا.

---

(١) قال ابن حجر: "وكان الكفار بعد الهجرة مع النبي ﷺ علىٰ ثلاثة أقسام: قسم وادعهم علىٰ أن لا يحاربوه ولا يمالئوا عليه عدوه؛ وهم طوائف اليهود الثلاثة: قريظة والنضير وقينقاع، وقسم حاربوه ونصبوا له العداوة؛ كقريش، وقسم تاركوه وانتظروا ما يئول إليه أمره؛ كطوائف من العرب: فمنهم من كان يحب ظهوره في الباطن؛ كخزاعة، وبالعكس كبني بكر، ومنهم من كان معه ظاهراً ومع عدوه باطناً؛ وهم المنافقون، فكان أول من نقض العهد من اليهود بنو قينقاع، فحاربهم في شوال بعد وقعة بدر، فنزلوا علىٰ حكمه، وأراد قتلهم فاستوهبهم منه عبد الله بن أبي، وكانوا حلفاءه فوهبهم له، وأخرجهم من المدينة إلىٰ أذرعات. ثم نقض العهد بنو النضير... ثم نقضت قريظة... " انظر:

- ابن حجر العسقلاني، **فتح الباري بشرح صحيح البخاري**، مرجع سابق، ج٧، ص٣٣٠.
- البخاري، **الجامع الصحيح**، مرجع سابق، كتاب: المغازي، باب:حديث بني النضير، ج٤، ص١٤٧٨، حديث رقم: (٣٨٠٤).
- القشيري، **صحيح مسلم**، مرجع سابق، كتاب: الجهاد والسير، باب: إجلاء اليهود من الحجاز، ج٣، ص١٣٨٧، حديث رقم: (١٧٦٥-١٧٦٦).
- ابن هشام، **السيرة النبوية**، مرجع سابق، ج٢، ص١٩٠.

فلما كانت وقعة بدر كتبت كفار قريش بعدها إلى اليهود: أنكم أهل الحلقة والحصون، يتهددونهم، فأجمع بنو النضير على الغدر، فأرسلوا إلى النبي ﷺ: اخرج إلينا في ثلاثة من أصحابك ويلقاك ثلاثة من علمائنا، فإن آمنوا بك اتبعناك. ففعل. فاشتمل اليهود الثلاثة على الخناجر فأرسلت امرأة من بني النضير إلى أخ لها من الأنصار مسلم تخبره بأمر بني النضير، فأخبر أخوها النبي ﷺ قبل أن يصل إليهم، فرجع، وصبحهم بالكتائب فحصرهم يومه، ثم غدا على بني قريظة فحاصرهم فعاهدوه فانصرف عنهم إلى بني النضير، فقاتلهم حتى نزلوا على الجلاء، وعلى أن لهم ما أقلت الإبل إلا السلاح، فاحتملوا حتى أبواب بيوتهم، فكانوا يخربون بيوتهم بأيديهم فيهدمونها، ويحملون ما يوافقهم من خشبها، وكان جلاؤهم ذلك أول حشر الناس إلى الشام."[1]

ب- بناء نظم اتصال فعالة ومنظمة:

اعتمد النبي ﷺ على نظم اتصال تتسم بالكفاءة والفعالية من خلال إدارة محكمة لعمليات الاتصال الداخلي والخارجي. ففي العهد المكي كانت ضرورة تجنب المواجهة أمراً لازماً حماية للدعوة من خطر الانحسار الجغرافي، وتأميناً للجماعة المؤمنة الأولى من خطر الاستئصال. فاتخذ لذلك ﷺ خطوة أساسية بعدم إبقاء من آمن به من رجالات القبائل المجاورة لمكة معه حتى يظهر أمره، ضماناً لآلية تواصلية فعالة خارج مكة قد تشكل لا محالة متنفساً حقيقياً للدعوة، ورصيداً احتياطياً تحسباً لما يمكن أن يقع للجماعة المؤمنة بمكة. فقد روى مسلم خبر إسلام عمرو بن عبسة، وفيه، "فقلت: إني متبعك قال: "إنك لا تستطيع ذلك يومك هذا، ألا ترى حالي وحال الناس؟ ولكن ارجع إلى أهلك، فإذا سمعت بي قد ظهرت فأتني."[2] ففي قوله ﷺ: "ارجع إلى أهلك، فإذا سمعت بي ظهرت فأتني" نأخذ منه درساً في الدعوة: "إن تكديس المريدين

---

(١) ابن حجر العسقلاني، **فتح الباري بشرح صحيح البخاري**، مرجع سابق، ج٧، ص٣٣١-٣٣٢.

(٢) والقشيري، **صحيح مسلم**، مرجع سابق، كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب إسلام عمرو بن عبسة، ج١، ص٥٦٩، حديث رقم: (٨٣٢).

والأعضاء حيث المحنة والإيذاء ليس هو الأصل، فهذا رسول الله ﷺ يوجه نحو الرجوع إلى الأقوام، وأمر كما نرى بالهجرتين إلى الحبشة، فذلك تخفيف عن المسلمين، وإبعاد لهم عن مواطن الخطر وستر لقوة المسلمين، وإعطاء فرصة للقائد حتى لا ينشغل، وضمان للسرية، وإفادة للمكان المرسل إليه، وإعداد للمستقبل، وملاحظة لضمان الاستمرار وتجنب الاستئصال"[1] وكذا مارواه البخاري من حديث إسلام أبي ذر، وفيه، فقال له النبي ﷺ: "ارجع إلى قومك فأخبرهم حتى يأتيك أمري"[2] وكانت الخطوة الثانية لا سيّما بعد اشتداد الأذى عليه وعلى أصحابه، وبعد عودته من الطائف رفض خيار الاستئصال، فقال لملك الجبال: "بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً"[3] كما رفض خيار الاعتزال والتراجع. لقد رفض ذلك "لأنه قد علم من فلسفة التاريخ الديني ومن تطبيقات الرسل السابقين، أن الاستئصال كان معالجة ظرفية مؤقتة في بداية التوحيد. أما في مثل موقعه هو من التاريخ، فإن المنهج سيكون هو المداولة بين الحق والباطل، ولذلك فقد أعرض عن فكرة الاعتزال أيضاً... فالنظر المنهجي مصوب هنا نحو المستقبل بصورة جلية كما يتبدى لنا ذلك في منهج القرآن الاستشرافي، ولكن التصويب نحو المستقبل لا يعني

---

(١) حوّى، **الأساس في السنة وفقهها «السيرة النبوية»**، مرجع سابق، ج١، ص٢٢٦.

(٢) رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما. انظر:

- البخاري، **الجامع الصحيح**، مرجع سابق، كتاب: مناقب الأنصار، باب: إسلام أبي ذر الغفاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ج٣، ص١٤٠١، حديث رقم: (٣٦٤٨).
- القشيري، **صحيح مسلم**، مرجع سابق، كتاب: فضائل الصحابة، باب: من فضائل أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ج٤، ص١٩٢٣، حديث رقم: (٢٤٧٤).

(٣) رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما. انظر:

- البخاري، **الجامع الصحيح**، مرجع سابق، كتاب: بدء الخلق، باب: إذا قال أحدكم آمين والملائكة في السماء ووافقت إحداهما الأخرى، ج٣، ص١١٨٠، حديث رقم: (٣٠٥٩).
- القشيري، **صحيح مسلم**، مرجع سابق، كتاب: الجهاد والسير، باب: ما لقي النبي ﷺ من أذى المشركين والمنافقين، ج٣، ص١٤٢٠، حديث رقم: (١٧٩٥).

الانسحاب من الحاضر كما تفعل المذاهب الرومانسية الهروبية الحديثة، أو تحطيمه،كما تفعل الحركات العبثية والشيوعية المتطرفة.

فالإسلام ليس (يوتوبيا) يذهله المستقبل المأمول عن الواقع الظرفي، ولا هو (إيديولوجيا رجعية) يذهلها الحنين إلى ماض ذهبي تود استرجاعه، وإنما هو منهج توحيدي يقبض على الواقع وينظر إلى المثال، ويقف في الحاضر ويستشرف الماضي والمستقبل معا، ويخوض في شبكة العلاقات الاجتماعية - السياسية ويرجو الله ويخافه."[1] والدليل على ذلك أنه دخل في جوار المطعم بن عدي -وهو من بني نوفل- "فإذا بعث الرسول ﷺ رجلاً من خزاعة إلى سيد قبيلة بني نوفل، فإن هذا الفعل إشارة ظاهرة إلى تلك الوقائع التاريخية، التي ذكرناها، كما فيها تذكير بالحلف القديم بين عبد المطلب وخزاعة، ضد بني نوفل وعبد شمس، ليفهم من ذلك أن الرسول ﷺ لا يقف معزولاً في مكة."[2]

وهكذا استثمر النبي ﷺ أعراف بيئته ومنظومتها الثقافية التواصلية بما لا يتعارض مع مقتضيات الرسالة، وذلك بهدف تكثيف الاتصالات بالقبائل الأخرى[3] في مواسم الحج وغيرها، بحثاً عن النصرة لإخراج الدعوة من احتمالات -صارت أكيدة- قد تجهز على مكتسباتها. وقد أسفرت هذه الاتصالات عن مفاوضات مع بعض القبائل (بنو عامر وبنو شيبان نموذجا) وعن بيعتي العقبة الأولى والثانية بوصفها تتويجاً تاريخياً للمجهود النبوي في عالم الاتصالات والعلاقات الدبلوماسية. أما في العهد المدني فقد كانت الخطوات الأربع التي أقدم عليها الرسول ﷺ حاسمة في هذا الباب (بناء المسجد، والمؤاخاة، والصحيفة، والسوق)، ثم تلا ذلك وعبر مراحل متفرقة ثلاث خطوات عدّت أساسية في تدبير الاتصال الخارجي بكفاءة

(١) التيجاني، **أصول الفكر السياسي في القرآن المكي**، مرجع سابق، ص١٧٦-١٧٧.

(٢) المرجع السابق، ص١٨٠.

(٣) ابن هشام، **السيرة النبوية**، مرجع سابق، ج١، ص٤٢٢ -٤٢٧.

وفعالية: الأولى تكوين فريق من المترجمين العارفين بلغات الشعوب والحضارات الأخرى، وقد تقدمت الإشارة إلى دعوة الرسول ﷺ لزيد بن ثابت لتعلم لغة اليهود. الخطوة الثانية تمثلت في إرسال الرسل، وتنظيم السفارات، والكتابة إلى الملوك والأمراء: "فعن أنس بن مالك أن النبي ﷺ كتب إلى كسرى، وإلى قيصر، وإلى النجاشي، وإلى كل جبار، يدعوهم إلى الله تعالى، وليس بالنجاشي الذي صلى عليه النبي ﷺ."[1] وقد "أظهر الرسول ﷺ في سياسته الخارجية دراية سياسية فاقت التصور،... فلو كان غير رسول الله ﷺ لخشي عاقبة ذلك الأمر،... ولكن حرص رسول الله وعزيمته على إبلاغ دعوة الله، وإيمانه المطلق بتأييد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، كل ذلك دفعه لأن يقدم على ما أقدم عليه. وقد حققت هذه السياسة النتائج الآتية:

- وطد الرسول ﷺ بهذه السياسة أسلوباً جديداً في التعامل الدولي لم تكن تعرفه البشرية من قبل.
- أصبحت الدولة الإسلامية لها مكانتها وقوتها وفرضت وجودها على الخريطة الدولية لذلك الزمان.
- كشف للرسول ﷺ نوايا الملوك والأمراء وسياستهم نحوه وحكمهم على دعوته.
- كانت مكاتبة الملوك خارج جزيرة العرب تعبيراً عمليّاً على عالمية الدعوة الإسلامية، تلك العالمية التي أوضحتها آيات نزلت في العهد المكي مثل قوله

---

(١) القشيري، **صحيح مسلم**، مرجع سابق، كتاب: الجهاد والسير، باب: كتاب النبي ﷺ إلى ملوك الكفار يدعوهم إلى الله عَزَّوَجَلَّ، ج٣، ص١٣٩٧، حديث رقم: (١٧٧٤).

وقد استقصى فاروق حمادة مجمل الروايات المتعلقة بالرسائل والسفراء والوفود والغزوات والسرايا والمعاهدات مع النصارى. انظر:

- حمادة، فاروق. **العلاقات الإسلامية النصرانية في العهد النبوي**، دمشق: دار القلم، ط١، (١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م).

سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبياء: ١٠٧]."[١]

والخطوة الثالثة الزواج من قبائل وبطون مختلفة، ومن بنات سادات العرب وقاداتهم، وما في ذلك من توسيع قاعدة التأثير، وضمان لفرص أكبر، لتأمين الدعوة والدولة معاً من أزمات مرتقبة أو تهديدات محتملة.

ت- السرعة والجاهزية في تدبير الحدث ومرونة في تغيير الخطط:

فعن جابر بن عبد الله الأنصاري قال: "كنا في غزاة فكسع رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار، فقال الأنصاري: يا للأنصار، وقال المهاجري: يا للمهاجرين، فسمع ذلك رسول الله ﷺ فقال: "ما بال دعوىٰ الجاهلية؟" قالوا: يا رسول الله، كسع رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار فقال: "دعوها فإنها منتنة" فسمع بذلك عبد الله بن أبي فقال: فعلوها؟ أما والله لئن رجعنا إلىٰ المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، فبلغ النبي ﷺ فقام عمر فقال: يا رسول الله دعني أضرب عنق هذا المنافق، فقال النبي ﷺ: "دعه، لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه."[٢] وفي رواية قال عمر بن الخطاب: "مُرْ به عباد بن بشر فليقتله، فقال له رسول الله ﷺ: "فكيف يا عمر إذا تحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه، لا، ولكن أذن بالرحيل" وذلك في ساعة لم يكن رسول الله ﷺ يرتحل فيها، فارتحل الناس ... ثم مشىٰ رسول الله ﷺ بالناس يومهم ذلك حتىٰ أمسىٰ، وليلتهم حتىٰ أصبح، وصدر يومهم ذلك حتىٰ آذتهم الشمس، ثم نزل بالناس، فلم يلبثوا أن وجدوا مس الأرض فوقعوا نياماً، وإنما فعل ذلك رسول الله ﷺ ليشتغل الناس عن الحديث الذي كان بالأمس."[٣]

وأثبتت الأحداث والوقائع صدق ووجاهة هذا الهدي النبوي، فمن حديث عبد الله بن أبي "كيف ترىٰ يا عمر؟ أما والله لو قتلته يوم قلتَ لي لأرعدت له أنوف لو

(١) الصلابي، **السيرة النبوية**، مرجع سابق، ص٧٢١-٧٢٢.

(٢) تقدم تخريجه صفحة (٤٣٧) من هذا الكتاب.

(٣) تقدم تخريجه صفحة (٤٣٧) من هذا الكتاب.

أمرتها اليوم لقتلته" فقال عمر: قد -والله- علمت لأمر رسول الله ﷺ أعظم بركة من أمري."[1] فهذه قدرة فكرية خاصة تمكن القائد من تعديل خططه إذا ما توقع حدوث أزمة، وتهدئة بعض المرجفين، وعدم مواجهة قادتهم لاحتمال نشوب صراع وأزمة داخلية قد تهدد التماسك الاجتماعي. ولما بلغ رسول الله ﷺ أن قريشاً قد خرجت تعترض طريقه وتنصب كميناً له ولأصحابه بقيادة خالد بن الوليد، وهو لم يقرر المواجهة العسكرية؛ إذ كان هدفه تعظيم البيت والقيام بالعمرة، رأى أن يغير طريق الجيش الإسلامي تفادياً للصدام مع المشركين، فقال: "من رجل يخرج بنا على طريق غير طريقهم التي هم بها؟" فقال رجل من أسلم: أنا يا رسول الله، فسلك بهم طريقاً وعراً بين شعاب شق على المسلمين السير فيه حتى خرجوا إلى أرض سهلة عند منقطع الوادي، وعند ذلك قال رسول الله ﷺ للناس: "قولوا: نستغفر الله ونتوب إليه." فقالوا ذلك. فقال: "والله إنها الحطة التي عرضت على بني إسرائيل فلم يقولوها."[2]

كما تجلت جاهزية القائد ويقظته أمام توقع أية أزمة يوم صلح الحديبية، فقد كان ﷺ متأهباً لاحتمال وقوع الغدر من قريش مما قد ينجم عنه اغتيالات في الجانب الإسلامي، فيقلب موازين القوى أثناء كتابة الصلح فيشعر المسلمون بالهزيمة النفسية. فقد روى مسلم سبب نزول قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾﴾ [الفتح: ٢٤]. "أن ثمانين رجلاً من أهل مكة هبطوا على رسول الله ﷺ من جبل التنعيم متسلحين، يريدون غرة النبي ﷺ وأصحابه، فأخذهم سلماً فاستحياهم، فأنزل الله عَزَّوَجَلَّ الآية المذكورة."[3]

---

(١) تقدم تخريجه صفحة (٤٣٩) من هذا الكتاب.

(٢) ابن هشام، **السيرة النبوية**، مرجع سابق، ج٢، ص٣٠٩ -٣١٠.

(٣) القشيري، **صحيح مسلم**، مرجع سابق، كتاب: الجهاد والسير، باب: قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾، ج٣، ص١٤٤٢، حديث رقم: (١٨٠٨).

ث- تشكيل جهاز معلوماتي استخباراتي:

وجود نظام متكامل يمكن من جمع البيانات والمعلومات، لإدارة التحولات والتحكم فيها بحسن قراءتها، فالمعلومات تحدد طريقة التعامل مع المتغيرات المتوقعة في المستقبل وتحدد طبيعة القرارات لمواجهة الأزمات المتوقعة، ويشترط في ذلك دقة المعلومات، وصحتها، وشمولها، وسرعة الحصول عليها والتحكم في طرق الوصول إليها، مع القدرة على استثمارها في حينها مما يمكن من ملاحظة اتجاه وتحرك الفعل المقابل أو الظاهرة، والنظر في تحولاتها ومآلاتها ووضع الخطط والمشاهد (السيناريوهات) المناسبة. "ورغم أهمية المعلومات لصناعة الموقف لا يعدلها شيء، إلا أنها حين تصطدم بالقناعات المستقرة لا يعود ممكناً رؤية المعلومة، ولا يستفاد منها حتى في حال رؤيتها. كل الحقائق الواضحة والتجارب النافعة لا يعود لها معنى حين يتلقفها بئر القناعات المستقرة، وفجوة الدفاع عن الذات"[1] كما وقع يوم أحد لمالم يستجب صغار الصحابة لاختيار النبي ﷺ بناء على ماتوافر لديه من معطيات ومعلومات سواء قبل خوض المعركة أم أثناءها.

وقد كان جهاز أمن الدولة الإسلامية على مستوى عال من التيقظ والحذر من أعدائه؛ فكان ﷺ يبعث العيون لرصد الأخبار وتتبع تحركات العدو، وكان العباس عم النبي ﷺ "يكتب بأخبار المشركين إلى رسول الله ﷺ، وكان المسلمون يتقوون به بمكة، وكان يحب أن يقدم على رسول الله فكتب إليه رسول الله ﷺ: أن مقامك في مكة خير"[2] وفي البخاري: أن النبي ﷺ خرج عام الحديبية "فلما أتى ذا الحليفة، قلد الهدي وأشعره وأحرم منها بعمرة، وبعث عيناً له من خزاعة."[3] وكمثل يوم الأحزاب؛ إذ توقع ما

(١) سلطان، **التفكير الاستراتيجي والخروج من المأزق الراهن**، مرجع سابق، ص١١٨.

(٢) ابن عبد البر. **الاستيعاب في معرفة الأصحاب**، مرجع سابق، ج٢، ص٨١٢.

(٣) البخاري، **الجامع الصحيح**، مرجع سابق، كتاب: المغازي، باب: غزوة الحديبية، ج٤، ص١٥٣١، حديث رقم: (٣٩٤٤-٣٩٤٥).

سيحصل لخطورة الموقف فقال: "من يأتينا بخبر القوم"[1] فتجمعت لديه البيانات عن التحالف اليهودي القرشي الغطفاني، فمكنه ذلك من اتخاذ جملة تدابير وإجراءات احترازية. وكان هذا دأبه قبل ذلك؛ يوم بدر وأحد وفيما بعد؛ يوم حنين وفتح مكة.

جـ- تشكيل رؤية وصورة واضحة ودقيقة وواقعية عن الأزمة:

مثل يوم الأحزاب والحديبية وخيبر التي مثلت لحظات فاصلة في تاريخ الدعوة والدولة الإسلامية تجلت فيها رؤية النبي ﷺ للمستقبل، وخياراته في إدارة الأزمة، والتعامل مع الآخر المخالف والمعتدي. فقوله يوم الأحزاب: "الآن نغزوهم ولا يغزوننا، نحن نسير إليهم"[2] تحول "استراتيجي" في الفعل النبوي الذي لم يعد حبيس الخيار الدفاعي، بل تحول إلى حركة مبادأة ومبادرة ترسم الخطط القادمة، وتتقدم بخطوات ثابتة نحو الهدف الرسالي. فـ"نحن نسير إليهم" هو سير مستقبلي استباقي الاستبصاري، ونظر "استراتيجي" في إدارة أيّة أزمة محتملة، كما أنه رسم لمشاهد مستقبلية متعددة ومرنة ومنفتحة دالة على قوة البدائل وتعدد الخيارات. وبوساطة هذه الرؤية لم يكن النبي ﷺ لتأسره أنماط الحاضر أو يحاكي النماذج المتعارف عليها.

حـ- تغيير موازين القوى والإخلال بتوازن الطرف الآخر وكسر إرادته:

فقد كان عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ مدركاً لموازين القوى في العالم آنذاك، وسعى إلى تغييرها لصالحه، بإرباك توازن الطرف الآخر، وتحطيم معنوياته، وكسر إرادته؛ فقد أمر عمه العباس أن يحبس أبا سفيان عند خطم (مضيق) الجبل حتى ينظر إلى المسلمين وتمر به

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم في صحيحيهما. انظر:

- البخاري، **الجامع الصحيح**، مرجع سابق، كتاب: المغازي، باب: غزوة الخندق، ج٤، ص١٥٠٩، حديث رقم: (٣٨٨٧).

- القشيري، **صحيح مسلم**، مرجع سابق، كتاب: الجهاد والسير، باب: غزوة الأحزاب، ج٣، ص١٤١٤، حديث رقم: (١٧٨٨).

(٢) تقدم تخريجه صفحة (٤٨٤) من هذا الكتاب.

جنود الله فيراها،[1] فأدرك أبو سفيان أن لا قبل لقريش بهذا الجيش، فخفتت في ذهنه الرغبة في المقاومة، وسار إلى مكة يوهنهم ويكسر إرادتهم، ودخل النبي ﷺ مكة بلا قتال بعد أن هزم قريشاً نفسياً.

وعمد يوم الأحزاب إلى تفتيت قوى التحالف، والإخلال بتوازنها، والتخذيل فيما بينها وبث الأراجيف فيها، وهو مانهض به نعيم بن مسعود حين أسلم فمشى بين قريظة وقريش وغطفان،[2] فذكر لكل واحد كلاما، حتى استوحش كل حزب من صاحبه، وأوقع بينهم، ورد الله كيدهم، "وفي قصة نعيم يوم الأحزاب مثل وشواهد من منهج الرسالة الخالدة جعلت منها إطاراً لما ينبغي أن يكون عليه المجتمع المسلم إذا تفاقمت به الأزمات، واستحكمت الشدائد... وأول ذلك أن تلجأ القيادة الحكيمة إلى الرأي الرصين الحكيم تستثيره وتوقظه، ليتحرك في اتجاه النظر في بؤره المجمعة لقوة الأعداء، ومصادرها وعناصر تركيبها حتى تتعرف إلى ما فيها من شروخ يسترها النفاق والدعاوي الكاذبة، فتعمد إلى كشفها وتسليط سياسة تمزيق الروابط بين عناصر تلك القوة التركيبية وحتى تتفكك وسائل الترابط الزائف بين تلك القوة المتورمة في حشود العدو."[3]

---

(١) البخاري، **الجامع الصحيح**، مرجع سابق، كتاب: المغازي، باب: أين ركز النبي ﷺ الراية يوم الفتح؟، ج٤، ص١٥٥٩، حديث رقم: (٤٠٣٠)، وانظر أيضاً:

- ابن هشام، **السيرة النبوية**، مرجع سابق، ج٢، ص٤٠٣ -٤٠٤.
- ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، مرجع سابق، ج٢، ص١٣٤-١٣٥.

(٢) ذكر القصة ابن إسحاق دون إسناد وفيها قوله: "الحرب خدعة." وهذا الجزء يشهد له ما جاء في الصحيحين كما تقدم. وأخرج القصة عبد الرزاق من حديث سعيد بن المسيب وهو مرسل، ومراسيل سعيد أصح المراسيل باتفاق كما ذكر ابن حجر. انظر:

- ابن هشام، **السيرة النبوية**، مرجع سابق، ج٢، ص٢٢٩ - ٢٣٠.
- الصنعاني، **المصنف**، مرجع سابق، ج٥، ص٣٦٧، حديث رقم: (٩٧٣٧).
- ابن حجر العسقلاني، **تقريب التهذيب**، مرجع سابق، ص٣٨٨.

(٣) عرجون، **محمد رسول الله ﷺ: منهج ورسالة، بحث وتحقيق**، مرجع سابق، ج٤، ص١٨٧.

وفي قصة إسلام ثمامة قوله: "وإن خيلك أخذتني وأنا أريد العمرة، فماذا ترى؟ فبشره رسول الله ﷺ، وأمره أن يعتمر. فلما قدم مكة قال له قائل: أصبوت؟ فقال: لا، والله، ولكني أسلمت مع محمد رسول الله ﷺ. ولا والله لا يأتيكم من اليمامة حبة حنطة حتى يأذن فيها رسول الله ﷺ."[1] والذي يترجح من خلال سياق القصة أنها كانت قبل فتح مكة، وإن كان وفد بني حنيفة، وثمامة بن أثال من بني حنيفة، في سنة تسع كما ذهب إليه ابن إسحاق وغيره. وقد أصابت قريش مجاعة بعد أن فرض ثمامة عليها الحصار، وتحكم في الطريق الذي يربط اليمامة بالحجاز، "وقطع الإمدادات التي كانت تصل من اليمامة أو البحرين إلى مكة... وعندما تمكن النبي ﷺ من تضييق الخناق على المشركين، ومعرفته أيضاً بضعف قدرة قريش على القتال والمواجهة العسكرية بعد صلح الحديبية، اتجه إلى إرسال البعوث لملوك الدول المجاورة يدعوهم إلى الإسلام."[2]

خ- التنسيق الترابطي التكاملي بين الأهداف والإجراءات والكيفيات والتوقعات ومنظومة القيم:

فتحديد الهدف ووضع العمليات والمؤشرات لمتابعة تنفيذه ودراسة التوقعات هو أمر لازم من لوازم إدارة الأزمة. ففي صلح الحديبية كان الهدف هو تعظيم البيت وزيارته وما في ذلك من إرغام قريش على الاعتراف بالدولة الإسلامية وإحراجها اجتماعياً إن امتنعت عن الخضوع لرغبة النبي ﷺ في القيام بالعمرة، وإحراجها سياسياً إن استجابت لطلبه، ولذلك عمد النبي ﷺ لإدارة أزمة يوم الحديبية حيث جاءت بعد الأحزاب وأزمة اشتداد الخناق على التحرك الدعوي النبوي، فكان صلح الحديبية

---

(١) تقدم تخريجه صفحة (٤٧٧) من هذا الكتاب، مع الإشارة إلى ما كان من ذكر البخاري قصة ثمامة في باب وفد بني حنيفة الذي كان سنة تسع استطراداً، بل أسلم ثمامة قبل فتح مكة وقبل مجيء وفد بني حنيفة كما هو ظاهر الحديث. انظر:

- ابن حجر العسقلاني، **فتح الباري بشرح صحيح البخاري**، مرجع سابق، ج٨، ص٥٧.

(٢) شويعر، محمد بن عبد الله. "الأزمة التجارية في مكة بعد الهجرة النبوية"، **مجلة الدارة**، السنة (٣٥)، العدد (٣)، رجب ١٤٣٠هـ، ص١٤٠.

فتحاً عظيماً بما حققه من مكاسب مستقبلية دلت على بعد نظر وقدرة على الإبصار المستقبلي بخطورة التهديد اليهودي (خيبر) وبداية التحرك النصراني (الشام)، وكفاءة عالية تجلت في التنسيق بين الأهداف والعمليات والسياسات ومنظومة القيم، فكانت الهدنة سبباً لفتح خيبر، ورجوع مهاجرة الحبشة، وإرسال الرسل والسفراء إلى الملوك والأمراء، وتجهيز جيش مؤتة، وحصول فتح مكة، ودخول قريش فيما بعد في الإسلام.

وفي مفاوضته مع بني عامر وهو بمكة فقه بمكونات الخريطة السياسية وعلم بالنسق الاجتماعي القائم على مقولة النسب؛ إذ وجد زعيمهم بيحرة بن فراس الفرصة مواتية لقبول هذا التفاوض وبسط نفوذه السياسي من خلال صراعه مع ثقيف التي صدت النبي ﷺ. لكن مشروع بيحرة السياسي لم يكن هو نفسه مشروع النبي ﷺ لذلك لم تتم هذه المعاهدة؛ لأنه ﷺ "كان يود أن يجري تحويراً جوهرياً في ذات مفهوم السياسة والسيادة، وذات مفهوم القتال والانقضاض. كان يريد للأنساق الاجتماعية المختلفة أن ترتبط بنسق القيم التوحيدية الجديدة التي يدعو لها. فالسياسة المنفكة عن أطر القيم هي مجرد صفقة ذات كسب عرضي لا ينفع."[1]

د- النظر في الفرص المتاحة والتهديدات والمخاطر المتوقعة:

كان النبي ﷺ يستصحب دوماً في أقواله وأفعاله وتحركاته البعد المستقبلي الذي لا تأسره الوقائع الظرفية ولا يجمد على كيفيات محددة، وإنما يرى المشهد الواقعي في كليته، ويرقب مسار الأحداث ويتلمس الفرص المتاحة ويعالج التهديدات المتوقعة، ويوازن بين خيارات ومسارات كما تمت الإشارة إلى ذلك في الدعامة الثالثة من دعائم التغير الاجتماعي. وقد تقدمت الشواهد على ذلك بما يغني عن الإعادة.

ذ- إعمال المنطق الاحتمالي التخميني التخييلي:

وبه يتم التخطيط لإدارة الأزمة، ويعين على مراقبة تداعياتها، ويساعد على ضبط الفوارق بين الممكن والمحتمل والمفضل، ويندرج ضمنه اعتبار المآل -وقد فصلنا في

(١) حامد، **أصول الفكر السياسي في القرآن المكي**، مرجع سابق، ص١٨٣.

الحديث عنه ضمن الكليات السننية- وهو من أهم القواعد في إدارة الأزمات.

ر- تدبير عملية التفاوض:

لقد تجلت الكفاءة السياسية النبوية في تدبير عملية التفاوض بصورة أكثر جلاء ووضوحاً في صلح الحديبية من خلال: بيعة الرضوان[١] وبعث السفراء،[٢] والتأثير على الأحابيش،[٣] وزعزعة تحالفهم مع قريش -بحكم مشاركة الأحابيش قريشاً الحرب على رسول الله ﷺ فخرجوا في غزوتي أحد والخندق، وأجهزوا كلياً على سرية رسول الله ﷺ يوم الرجيع غدراً ومكراً- والتمييز بين المبادئ والمتغيرات، والمبادئ والمواقف. وقد تمخضت المفاوضات عن عقد اتفاقية صلح بين المسلمين وقريش تضمنت شروطاً عديدة اتفق عليها الطرفان، وكانت النتيجة كما يقول الإمام الزهري: فما "فتح في الإسلام فتح قبله كان أعظم منه، إنما كان القتال حيث التقى الناس، فلما

---

(١) البخاري، **الجامع الصحيح**، مرجع سابق، كتاب: المغازي، باب: قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ...﴾ [آل عمران: ١٥٥]، ج٤، ص١٤٩١، حديث رقم: (٣٨٣٩). وفي مواضع أخرى من صحيحه، وانظر أيضاً:

- القشيري، **صحيح مسلم**، مرجع سابق، كتاب: الإمارة، باب: استحباب مبايعة الإمام الجيش عند إرادة القتال، ج٣، ص١٤٨٣، حديث رقم: (١٨٥٦-١٨٦٠).

(٢) بعث النبي ﷺ خراش بن أمية الخزاعي، وعثمان بن عفان، يخبران قريشاً أنه لم يأت لحرب. انظر:

- البخاري، **الجامع الصحيح**، مرجع سابق، كتاب: المغازي، باب: غزوة الحديبية، ج٤، ص١٥٢٣.

- ابن هشام، **السيرة النبوية**، مرجع سابق، ج٢، ص٣١٥.

(٣) الأحابيش حلفاء قريش بطن منهم، وليسوا من الحبشة، وهم عرب أحرار، واحدها أحبوش بضمتين وهم بنو الهون بن خزيمة بن مدركة، وهم بطن من مضر، وبنو الحارث بن عبد مناة بن كنانة، وبنو مالك بن كنانة، وبنو ضمرة وهم من كنانة، وبنو المصطلق وبنو عامر من خزاعة. كانوا تحالفوا مع قريش قيل: تحت جبل يقال له الحبشي أحبيش أو حبش أسفل مكة، وقيل سموا بذلك لتحبشهم؛ أي تجمعهم. والتحبش التجمع والحباشة الجماعة." انظر:

- ابن حجر العسقلاني، **فتح الباري بشرح صحيح البخاري**، مرجع سابق، ج٥، ص٣٣٤.

- شعيب، علي حسن أحمد حسن. "دراسة لمواقف الأحابيش من الإسلام منذ البعثة وحتى فتح مكة"، **مجلة الدارة**، العدد (٤)، السنة (٣٥)، شوال ١٤٣٠هـ، ص٤٧-١١٤.

كانت الهدنة ووضعت الحرب وأمن الناس بعضهم بعضاً، والتقوا فتفاوضوا في الحديث والمنازعة، فلم يكلم أحد بالإسلام يعقل شيئاً إلا دخل فيه، ولقد دخل في تينك السنتين مثل ما كان في الإسلام قبل ذلك أو أكثر."[1] وقد رأى النبي ﷺ تخفيف حِدّة الحصار لما رأى العرب قد رمت الصحابة عن قوس واحدة بعقد صلح مع غطفان.[2] وفي إدارته أزمة تحالف الأحزاب، وقصة الصلح هذه مع غطفان، وعدم انعقاده "نموذج من نماذج السياسة الحكيمة المحكمة التي أدار رسول الله ﷺ الموقف، وقد بلغ ذروة المحنة، وقد أراد ﷺ بهذه السياسة أن يبرز جانباً من جوانب منهج رسالته في التحرك لفك الأزمات عند استحكامها وتأزمها، لتكون لأجيال المجتمع المسلم درساً تربويّاً من دروس التربية المنهجية عند اشتداد البلاء."[3]

---

(١) ابن هشام، **السيرة النبوية**، مرجع سابق، ج٣، ص٢٩٧.

(٢) عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال : جاء الحارث الغطفاني إلى رسول الله ﷺ فقال: يا محمد شاطرنا تمر المدينة فقال ﷺ: حتى استأمر السعود "فبعث إلى سعد بن معاذ وسعد بن عبادة وسعد بن مسعود وسعد بن خيثمة فقال : إني قد علمت أن العرب قد رمتكم عن قوس واحد، وان الحارث سألكم أن تشاطروه تمر المدينة، فان أردتم أن تدفعوه عامكم هذا في أمركم بعد؟ فقالوا : يا رسول الله أوحي من السماء فالتسليم لأمر الله أو عن رأيك وهواك فرأينا نتبع هواك ورأيك، فان كنت إنما تريد الإبقاء علينا فوا لله لقد رأيتنا وإياهم على سواء ما ينالون منا ثمرة إلا شراء أو قرى. فقال رسول الله ﷺ:" هو ذا تسمعون ما يقولون " قالوا: غدرت يا محمد، فقال حسان بن ثابت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

يـا جـار مـن يغـدر بذمـة جـاره ... مـنكم فـإنّ محمـداً لا يغـدر
وأمانـة المـري حـين لقيتهـا ... كـسر الزجاجـة صـدعها لا يجـبر
إن تغـدروا فالغـدر مـن عـاداتكم ... واللـؤم ينبـت في أصـول الـسخبر

أخرجه الطبراني. وذكره الهيثمي في مجمعه، وقال: رجاله ثقات، وفيه محمد بن عمرو وحديثه حسن. وابن إسحاق مرسلاً، وفيه راو لم يسمه. انظر:

- الطبراني، **المعجم الكبير**، مرجع سابق، ج٦، ص٢٨، حديث رقم: (٥٤١٦).
- الهيثمي، **مجمع الزوائد ومنبع الفوائد**، مرجع سابق، ج٦، ص١٣٢.
- ابن هشام، **السيرة النبوية**، مرجع سابق، مرجع سابق، ج٢، ص٢٢٣.

(٣) عرجون، **محمد رسول الله ﷺ: منهج ورسالة، بحث وتحقيق**، مرجع سابق، ج٤، ص١٧٦.

ولم يكن يعدل ﷺ عن التشاور[1] وهو يفاوض، وفي استشارة رسول الله ﷺ للسعدين بخصوص الصلح مع غطفان يبين لنا أسلوبه في القيادة وإدارة الأزمات، "إن قبول الرسول ﷺ رأي الصحابة في رفض هذا الصلح يدل على أن القائد الناجح هو الذي يربط بينه وبين جنده رباط الثقة، حيث يعرف قدرهم ويدركون قدره، ويحترم رأيهم ويحترمون رأيه، ومصالحة النبي ﷺ مع قائدي غطفان تعد من باب السياسة الشرعية التي تراعي مقتضيات الأحوال"[2] وسيرته ﷺ شاهدة على أخذه بهذا المبدأ في كل أحواله مالم يكن وحياً.

إن إحداث تحول حضاري وتغير اجتماعي مثل ما قاده النبي ﷺ وهو يبني عمران العالم، ويحكم حلقات إقامة الشهادة على العالمين، وهداية الناس إلى اتباع النور الذي أنزل معه لا يمكنه أن يتم دون أن يتحقق تجويد الإحكام المعرفي والمنهجي لسنن هذا العمران البشري والاجتماع الإنساني؛ إحكام علم وتسخير وتبليغ، ووضع كل الإمكانات البشرية والمادية، والفرص المتاحة، والتهديدات الممكنة أمام التخطيط

---

(١) قال ابن حجر معلقاً على الحديث الذي رواه البخاري بطوله في كتاب الشروط: "اختصر المصنف صدر هذا الحديث الطويل مع أنه لم يسقه بطوله إلا في هذا الموضع، وبقيته عنده في المغازي من طريق سفيان بن عيينة عن الزهري قال: ونبأنيه معمر عن الزهري: وسار النبي ﷺ حتى كان بغدير الأشطاط أتاه عينه فقال: إن قريشاً جمعوا جموعاً وقد جمعوا لك الأحابيش، وهم مقاتلوك وصادوك عن البيت ومانعوك. فقال: أشيروا أيها الناس علي، أترون أن أميل إلى عيالهم وذراري هؤلاء الذين يريدون أن يصدونا عن البيت، فإن يأتونا كان الله عَزَّوَجَلَّ قد قطع عيناً من المشركين، وإلا تركناهم محروبين. قال أبو بكر : يا رسول الله، خرجت عامداً لهذا البيت لا تريد قتل أحد ولا حرب أحد، توجه له، فمن صدنا عنه قاتلناه. قال: امضوا على اسم الله. إلى هاهنا ساق البخاري في المغازي من هذا الوجه، وزاد أحمد عن عبد الرزاق وساقه ابن حبان من طريقه قال: "قال معمر قال الزهري: "وكان أبو هريرة يقول: ما رأيت أحداً قط كان أكثر مشاورة لأصحابه من رسول الله ﷺ،" وهذا القدر حذفه البخاري لإرساله، لأن الزهري لم يسمع من أبي هريرة." انظر:

- ابن حجر العسقلاني، **فتح الباري بشرح صحيح البخاري**، مرجع سابق، ج٥، ص٣٣٤.

(٢) الرشيد، عبد الله محمد. **القيادة العسكرية في عهد الرسول ﷺ**، دمشق: دار القلم، ط١، (١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م)، ص٤١٤.

والمتابعة والتنفيذ والحماية والتقييم والاستشراف، وتدعيم ذلك كله بقواعد وأصول فقه مستقبلي يعمد على الدوام على توقع الأزمات وإدارتها، كل ذلك يتم وفق مرجعية عقدية وتشريعية، ومنظومة قيمية تحكمها كليات الدين ومقاصد الشريعة، رحمة بالعباد، وتحقيقاً لمصالحهم في المعاش والمعاد.

obeikandl.com